(ب) بالنظر إلى أوّل أولى العزم من الرُّسّل ذكرا فى الآية الكريمة يتبين أنه خاتمهم وأشرفهم ، محمّد بن عبد الله ﷺ . وذلك دليلٌ واضح على منزلة هذا الرّسول الكريم الفريدة عند بارئه ، والدور المنقطع النظير الذى ينتظر أن يقوم به . يقول أبو حيّان[1] : « وقدم محمّدا ﷺ ، لكونه أفضل منهم وأكثرهم أتباعاً » إننا بصدد ذكر هؤلاء الخمسة من الرّسل على جهة الخصوص ، بعد أن نالوا حظهم من الذّكر الضمنى فى صدر الآية الكريمة : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم** ﴾ وتشاء العناية الإلهية أن يبدأ الحديث عن أولى العزم هؤلاء بآخرهم ، دليلا على أنه ﷺ أشدُّهم عزيمة .

(جـ) جمع السّياق بين أوّل رسل الله تعالى نوح عليه السّلام ، وبين آخر رسل الله تعالى محمّد بن عبد الله ﷺ . ومع أنّ ابتداء الحديث بخاتمهم ، وله معناه ومغزاه ، ومِنْ ذلك كونه أشد أولى العزم صبْراً ، وأمضاهم عزيمة . فإنّ للجمع بين أوّل الرّسل وآخرهم ، بالإضافة إلى ما سبق ، مغزى عميقا . ونستطيع أن ندرك هذا المغزى العميق ، حينما نتبين أن نوحاً عليه السّلام من الرّسل ، بمنزلة الرّائد لهم . فليس قبله عليه الصّلاة والسّلام رسول . وللرّيادة تبعاتها وقيمتها كما هو معروف . فإذا كان لابتداء الانطلاقة معناه ومغزاه ، وذلك هو الدّور الذى قام به نوح عليه السّلام ، فإنّ الوصول بتلك الانطلاقة إلى أقصى مدّها ، وذلك هو الدّور الذى قام به محمّد بن عبد الله ﷺ ، له معناه ومغزاه . وكأن السّياق يقرر بالجمع بين هذين الرّسولين الكريمين ، فضل كل من وضع الأسس والقواعد ، وإكمال البناء على أكمل وجه وأحسن حال . ولكنّ الأمر فى الحقيقة لا يقف عند هذا الحد ، لأنّ السّياق يقدم فى الذّكر من أتمّ البناء وأحْسنه . إنّه يقدّم محمّد بن عبد الله ﷺ . فإذا كان نوح عليه السّلام ، له فضل الرّيادة ، وها هو ذا يتقدم فى الذّكر على ثلاثة من أولى العزم من الرُّسل ، فإنّ محمّداً ﷺ يتقدم الجميع . وليس وراء هذا الدّليل دليلٌ على كون محمّد بن عبد لله ﷺ ، أشرف الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين : « روى قتادة عن الحسن عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى : وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك

---

(١) البحر المحيط ٢١٣/٧ .

ومن نوح . قال : كنت أولهم فى الخلق وآخرهم فى البعث »[1] .

وإنّ اتحاد التّعبير عن كل من محمّد بن عبد الله ﷺ ونوح عليه السّلام فى القول : « ومنك ومن نوح » حيث إنّ السّياق لا يستغنى فى المرّة الثّانية عن حرف الجرّ من يعْنى أنّ ما قام به نوح عليه السّلام ، كفاء الميثاق الذى أخذه الله تعالى عليه ، من جنس ما قام به محمدّ بن عبد الله ﷺ ، الذى قدّم فى الذّكر دليل الشرف والفضل . وبهذا يتبين على جهة الخصوص ، الدور الفريد الذى قام به خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ ، كفاء الميثاق الّذى أخذ عليه ، بل الميثاق الغليظ . قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ .

(د) جاء ترتيب الأنبياء الثّلاثة الباقين من أولى العزم ، مراعيا للزمن ، وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، بينما قدم فى آية الشورى نوح عليه السلام . وفى ذلك التقديم يقول الزمخشرى[2] بشأن آيتى الأحزاب والشورى « فإن قلت : فقد قدّم نوحٌ عليه السّلام فى الآية التى هى أخت هذه الآية ، وهى قوله : **شرع لكم من الدّين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك** . ثم قدّم على غيره . قلت : مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك : وذلك أنّ الله تعالى إنّما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة . فكأنّه قال : شرع لكم الدّين الأصيل الّذى بعث عليه نوحٌ فى العهد القديم ، وبعث عليه محمّد خاتم الأنبياء فى العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير »

(هـ) لم يستغن السّياق بشأن عيسى عليه السّلام عن القول : ابن مريم ، وقد عرفنا دور ذلك صوتيا . كما لا يخفى دور ذلك معنويّاً . لقد تورّط أتباع عيسى عليه السّلام فى أكبر ذنبٍ لا يغفره الله تعالى، وهو الإشراك معه جلّ وعلا غيره. فقد زعموا أن عيسى ابن مريم هو ابن الله ، ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا** ﴾ وتعالى الله علوا كبيرا . وحينما نتبين أنّ أهمّ بنود الميثاق الغليظ الذى أخذه الله تعالى على النبيين يتعلق بتوحيد الله تعالى ، وأنّ أتباع واحد من أولى العزم من الرّسل ، وهم أكثر عددا من أتباع موسى عليه السّلام مثلاً ،

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٠٩ .

(٢) الكشاف ٥٣١/٢

السّابق عليه زمنا ، بل هم من أكثر الأتباع على الإطلاق ، ندرك أهمية النّصّ على كون عيسى عليه السلام هو ابن مريم . إنّ القول ابن مريم ضرورى معنويا وصوتيا . وهذا مظهر من مظاهر القول بأن القرآن الكريم قادرٌ دائماً وأبداً على إرضاء العقل بفصوص حكم المعانى وإشباع النفس بجميل تركيب المبانى .

وربما كان لطيفا أن نشير إلى أنّ عدد المرات فى القرآن الكريم الّتى جاء معها ذكر عيسى عليه السلام على أنه ابن مريم ، أكثر من عدد المرّات التى جاء معها ذكر عيسى عليه السلام مفردا . قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى الجزئية الكريمة الأخيرة فى الآية الكريمة أو التذييل : ﴿ **وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ تبينا – كما قلنا من قبل – أنّ الحديث عن الميثاق الّذى جاءت الإشارة إليه فى صدر الآية الكريمة مضافا إليه الضمير العائد إلى النبيين معناه أنّه قد اتضح أنّ ذلك الميثاق من نوع خاصّ . لأنّ ربّ العزّة قد أخذه من صفوة خلقه . فإذا جاء بعد ذكر مجموعة من الرُّسل مرّة أخرى على جهة الخصوص ، بل بعد ذكر مجموعة من أولى العزم منهم ، استطعنا أن نفهم من إطلاق لفظ الميثاق أنّه هو ذات السّابق ، الّذى استحق الآن أن ينوه به إثر التنويه بأولى العزم من الرّسل . وكان التنويه بالميثاق عن طريق وصفه بالغلظ . وسبق أن بينا آراء بعض العلماء فى هذا الشّأن .

(٨) فإذا تحوّلنا إلى آخر آيات هذا القسم الثّالث قال تعالى : ﴿ **ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذابا أليما** ﴾ استطعنا أن ننظر إليها من زاويتين اثنتين . الزّاوية الأولى زاوية العلاقة المعنوية بين الآية الكريمة والآية السّابقة عليها . والزّاوية الثانية ، زاوية العلاقة المعنويّة بين شطرى الآية الكريمة . وسيتضح بإذن الله تعالى ، أنّ الزّاويتين يكمل بعضهما بعضا .

إنّه بالنظر إلى الآية الكريمة من زاوية العلاقة بينها وبين الآية الكريمة السابقة يتضح أنّ العلاقة وثيقة بين سؤال الصّادقين فى الآية الثّانية ، وبين أخذ الميثاق ، والميثاق الغليظ من النبيين عموماً ، ومن أولى العزم منهم على جهة الخصوص ، فى الآية الأولى . وإنّه بالنظر إلى الآية الكريمة من زاوية العلاقة بين شطريها يتبين أنّ العلاقة

منشؤها التقابل فى صفات المؤمنين الصّادقين ، والكافرين الكاذبين ، وفى ثواب الأوّلين وعقاب الآخرين . وإنّ كلاً من الزّاويتين بحاجة منّا إلى وقفة قصيرة .

بالنّظر إلى صدر الآية الكريمة الثّانية : ﴿ **ليسأل الصّادقين عن صدقهم** ﴾ بالقياس إلى أخذ الميثاق من النّبيين ، يتبين أنّ هؤلاء النبيين أجمعين ، كما تقول الآية الكريمة . التى تصف النبيين بالصدق ، قد وفقهم الله تعالى لتبليغ الرّسالة وتأدية الأمانة ، والنُّصح للأمّة ، والإخلاص لدعوة الحقّ شهادة ألاّ إله إلاّ الله«فنحن نشهد أنّ الرّسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم ، وأفصحوا لهم عن الحقّ المبين ، الواضح الجلى ، الّذى لا لبس فيه ولا شكّ ولا امتراء . وإن كذّبهم من كذّبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين . فما جاءت به الرّسل هو الحقّ . ومن خالفهم فهو على الضّلال ، كما يقول أهل الجنّة[1] لقد جاءت رسل ربّنا بالحق »[2] .

وهذه الشّهادة فى الآية الكريمة للنبيين بتبليغ الرّسالة على الوجه المطلوب ، تتمشى مع مثل قوله تعالى عن النبيين صلوات الله وسلامه عليهم فى سورة آل عمران[3] ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيأمركم بالكفر بعد إذا أنتم مسلمون** ﴾ وذلك يعنى أن النبيين قد وفوا بالميثاق الّذى أخذه الله تعالى عليهم ، والّذى أشارت إليه الآية الكريمة التالية من سورة آل عمران[4] قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسولٌ مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين** ﴾ وإلى هذا الميثاق أشارت الآية الكريمة السّابقة من سورة الأحزاب .

وإن سؤال الصّادقين عن صدقهم ذو فوائد منها :

---

(١) سورة الأعراف ٤٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٦٩/٣ .
(٣) الآية ٧٩ ، ٨٠ .
(٤) الآية ٨١ .

(أ) إن سؤال الله تعالى الّذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السّماء ، الصادقين عن صدقهم ، أى عن تبليغهم الرّسالة إلى قومهم[1] يعنى أن السؤال ألصق بكلّ عباد الله تعالى الآخرين ، الّذين يقلّون عن درجة النبوة من زاوية الصّلاح ، ومن باب أولى أن يلصق السؤال بغير الصّالحين وغير المؤمنين ، وقد رتبت سورة النساء درجات الصلاح ابتداءً من أعلاها ، أعنى النبوّة ، وفق هذه الدّرجات الأربع . النبيين الصدقيين الشهداء الصالحين . قال تعالى[2] : ﴿ **ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النبيين والصّدّقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما** ﴾ .

(ب) نستطيع أن نفهم أنّ سؤال الصّادقين وفى مقدمتهم الأنبياء والمرسلون ، يفهم منه الثناء على الصّادقين الذين استجابوا لله والرّسول ، فكان منهم الصّديقون والشهداء والصّالحون . كما يُفْهَمُ منه توبيخ الكافرين المكذبين على غرار توبيخ الكافرين من أتباع عيسى عليه السلام،عن طريق السؤال الّذي يوجهه يوم القيامة ربّ العزة لعيسى ابن مريم عليه السلام والذى أشارت إليه سورة المائدة[3] فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للنّاس اتخذونى وأمّى إلهين من دون الله . قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته . تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنّك أنت علاّم الغيوب . ما قلت لهم إلاّ ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربّى وربّكم . وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرّقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم** ﴾ وإلى سؤال المرسل إليهم ، مؤمنين وكافرين أشارت الآية الكريمة من سورة الأعراف[4] قال تعالى : ﴿ **فلنسألن الّذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾ يقول الطبرى فى هذا المعنى[5] : يقول تعالى ذكره: « أخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم كيما أسأل المرسلين عمّا أجابتهم به

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢١٠ .
(٢) سورة النّساء ٦٩ ، ٧٠ .
(٣) الآيات ١١٦ - ١١٨ .
(٤) الآية ٦ .
(٥) تفسير الطّبرى ٧٩/٢١ .

أممهم ، وما فعل قومهم ، فيما أبلغوهم عن ربّهم من الرّسالة » .

وبهذا يتضح من النظرة إلى صدر الآية الكريمة من زاوية العلاقة بالآية الكريمة السّابقة ، أن السّؤال شامل للنبيين والمرسلين ، وللمؤمنين المتقين ، المصدقين للنبيين والمبلغين المؤدين عن الرّسول ، وللكافرين المكذبين . يقول أبو حيانّ فى البحر المحيط[1] بشأن اللام فى ليسأل « واللام فى : ليسأل قيل : يحتمل أن تكون لام الصيرورة . أى أخذ الميثاق على الأنبياء ليصير الأمر إلى كذا . والظاهر أنهّا لام كى . أى بعثنا الرّسل وأخذنا عليهم المواثيق فى التبليغ ، لكى يجعل الله خلقه فرقتين . فرقة يسألها عن صدقها ، على معنى إقامة الحجة . فتجيب بأنّها قد صدقت الله فى إيمانها وجميع أفعالا ، فيثيبها على ذلك . وفرقة كفرت فينالها ما أعدّ لها من العذاب » وإنّ الترابط بين الآيتين الكريمتين يحتم النظرة من هذه الزّاويـة .

فإذا تحوّلنا إلى الزّاوية الثّانية ، زاوية العلاقة بين شطرى الآية الكريمة . قال تعالى : **ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما** ، استطعنا أن نتبين أنّ العلاقة تنطلق من التقابل فى الصفات والمصير . أمّا التقابل فى الصفات فنستطيع أن نتبينه من الصفتين المتقابلتين فى الآية الكريمة ، صفة الصدّق بشأن المؤمنين المتقين . وصفة الكفر بشأن المكذبين المجرمين . وأمّا التقابل فى المصير فنستطيع أن نتبينه من ذكر العذاب الأليم فى حق هؤلاء الكافرين الّذى يقذف للأذهان توّا بالنعيم المقيم فى حقّ المؤمنين المتقين . وإن كلاً من هذين الأمرين بحاجة منا إلى أن نقف عنده بعض الوقت .

بشأن المؤمنين نتبين صفة الصدق . وبشأن الآخرين صفة الكفر . ونحن نوّد أن نتدبر صفة الصدق أوّلا فى حقّ المؤمنين . ويتبادر إلى أذهاننا حالا ثناء فى هذه السورة الكريمة حارٌّ على هؤلاء المؤمنين بصفة الصّدق فى أصعب المواقف وأحلك المواطن . فى ساحة الجهاد فى سبيل الله تعالى . حيث إنّ هؤلاء المؤمنين المتقين قد صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ، بأن يفدوا هذا الدين رضى الله تعالى لعباده ،

---

(١) ٢١٣/٧ .

بالنفس والنفيس قال تعالى[1] ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا . ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفوراً رحيما** ﴾ إنّه بالجمع بين هذه الآيات الثّلاث الكريمات من السورة يتضح أن المؤمنين يوصفون بالصّدق . وهذا معناه أن الكافرين الذين نصت عليهم الآية الثّامنة كاذبون . وأنّ المنافقين الذين نصت عليهم الآية الكريمة الرابعة والعشرون كاذبون كذلك . وبهذا انقسم النّاس بشأن موقفهم من هذا الدّين قسمين ، مؤمنين ، من صفاتهم الصّدق والتقوى . وكافرين من صفاتهم الكذب . ويلحق بالكافرين المنافقون . لأنّ صفة الكفر بنعم الله تعالى جامعةٌ بينهم . وفرق بين الفريقين أنّ الكافرين يظهرون ما فى قلوبهم المريضة . وأنّ المنافقين يبطنون ذلك ، ويعلنون خلاف ما يسرّون . وإذا كانت الآيتان الكريمتان ، الثّالثة والعشرون والرّابعة والعشرون من السّورة ، قد أثنت على المؤمنين الصّادقين ، فإن الآيتين الكريمتين ، العشرين والحادية والعشرين من سورة محمّد عليه الصّلاة والسلام ، قد أثنت أولاهما على المؤمنين الحريصين على بذل كلّ غال ورخيص فى سبيل الله تعالى ، بما فى ذلك الأرواح . وذمّت هى والآية التّالية المنافقين غير الصّادقين فى القتال بل الكاذبين . قال تعالى[2] : ﴿ **ويقول الّذين آمنوا لولا نُزّلت سورة . فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الّذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم . طاعةٌ وقولٌ معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خير لهم** ﴾ .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة الثّامنة من سورة الأحزاب ، تشير إلى سؤال ربّ العزة الصّادقين عن صدقهم . بينما تشير الآية الرّابعة والعشرون إلى جزاء هؤلاء الصّادقين بصدقهم . وفى المقابل تنص الآية الكريمة الثّامنة على العذاب الأليم الذى أعدّ للكافرين . وتنص الآية الكريمة الرّابعة والعشرون على عذاب الله تعالى المنافقين إن شاء أو توبته عليهم .

من هذه المقارنة بين الفريقين المختلفين فى الصّفات والمصير نستطيع بشأن الآية

---

(١) سورة الأحزاب ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة محمّد ٢٠ ، ٢١ .

الكريمة الثّامنة التى نحن بصددها أن نقول : إنّها تتحدّث فى المقام الأوّل عن موقف الأمّة من رسولها . وهى تنقسم قسمين : القسم الأوّل المؤمنون المتقون المصدّقون . وهؤلاء أعد الله تعالى لهم يوم القيامة من الثّواب مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . والقسم الثانى الكافرون والمنافقون المكذبون . وهؤلاء أعدّ الله تعالى لهم يوم القيامة عذابا أليما . وبهذا تكون الآية الكريمة : ﴿ **ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذابا أليما** ﴾ قد ذكرت فى أحد القسمين فقط ما يدل على تحققه ضمنا فى القسم الآخر . ويعتبر ذلك مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . إنّ الشّق الأوّل من الآية الكريمة ينص على سؤال الصّادقين عن صدقهم . وهذا معناه أنّ الكافرين سيسألون عن كذبهم ، وهذا مفهومٌ ضمنا . وإنّ الشّقّ الثّانى من الآية الكريمة ينصّ على العذاب الأليم الّذى أعد للكافرين . وهذا معناه أنّ المؤمنين المتقين الصّادقين قد أعدّ الله تعالى لهم نعيما مقيما . وهذا مفهوم ضمنا كذلك . ويلاحظ على جهة الخصوص ، أنّ كلاًّ من الشّطرين أعطى صفة من أهم صفات كل فريق . إنّ صفة الصّدق ، وبخاصة ساعة اللقاء ، مِنْ أهم ما عنيت به السّورة الكريمة . وهذا معناه أن هؤلاء الصّادقين ، من صفاتهم الضّمنيّة الإيمان والتقوى . وقد نصّ الشّطر الأوّل على صفة الصّدق هذه ، بينما نصّ الشّطر الثانى على صفة الكفر والعياذ بالله . ومن الّذين فطنوا إلى هذا المظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . أبو حيان ، الّذى ذهب إلى القول فى البحر المحيط[1] : « ويجوز أن يكون حذف من الأوّل ما أثيب به الصّادقون وهم المؤمنون . وذكرت العلّة . وحذف من الثّانى العلّة وذكر ما عوقبوا به . وكأنّ التقدير : ليسأل الصّادقين عن صدقهم فأثابهم . ويسأل الكافرين عمّا أجابوا به رسلهم....فحذف من الأوّل ما أثبت مقابله فى الثّانى . ومن الثّانى ما أثبت مقابله فى الأوّل . وهذه طريقة بليغة . وقد تقدّم لنا ذكر ذلك فى قوله : ومثل الّذين كفروا كمثل الذين ينعق[2] ، وأمعنا الكلام هناك » .

والعذاب الأليم الموجع[3] قال تعالى : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم**

---

(١) ٢١٤/٧ .

(٢) البحر المحيط ٤٨١/١ - ٤٨٤ بشأن الآية رقم ١٧١ من سورة البقرة .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٦٩/٣ وتفسير الطبرى ٨٠/٢١ .

وأزواجه أمهّاتهم . وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا . وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليما .

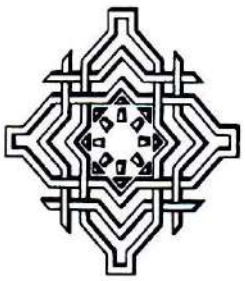

(٤)

« اذكروا نعمة الله عليكم » (الآيات ٩- ١١)

هذا القسم يتكوّن من ثلاث آيات كريمات تخصّ المؤمنين .قال تعالى : ﴿ **يا أيُّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ .

(٩) فمع الآية الكريمة الأولى ابتداءا . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا** ﴾ فى الإمكان أن ننظر إلى الآية الكريمة من زوايا عدّة . هى على النّحو التّالى .

إنّ الآية الكريمة تبدأ بخطاب المؤمنين المتقين : ﴿ **يا أيُّها الّذين آمنوا** ﴾ وهذه الطريقة فى الخطاب من قبل ربّ العزّة للمؤمنين المتّقين ، تعتبر بمثابة الشّهادة منه جلّ وعلا بأنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم يمثلون بقيادة المصطفى ﷺ الفئة المؤمنة . ومعروف أنّ الإيمان أجمل الصّفات التى تتحلّى بها هذه الفئة وتتّصف . وهذه الطّريقة فى الخطاب ، ذات المدلول المعيّن ، والّتى يُصَدَّر بها الحديث عن غزوة الأحزاب وبنى قريظة ، تذكّرنا بالطّريقة ذاتها الّتى صدرت بها السّورة الكريمة ، والّتى كانت بمثابة الشّهادة منه جلّ وعلا ، بأنّ المصطفى ﷺ رسول ربّ العالمين ، إضافة إلى دلالة هذه الطّريقة من الخطاب على منزلته ﷺ عند بارئه . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها النبى اتق الله** ﴾ .

وإذا كان خطابه ﷺ بالقول : ﴿ **يا أيّها النبى** ﴾ قد أردف بالطّلب منه أن

يتحلّى من الصفات بأسماها وأسناها ، صفة التقوى ، وذلك بالقول : ﴿ **يا أيّها النبى اتق الله** ﴾ فإنّ الخطاب للمؤمنين هنا ، يتّجه الوجهة ذاتها ، فَيُطْلب من المؤمنين أن يتذكروا نعمة من أكبر نعم الله تعالى . وهذه النعمة متعلقة بالجهاد فى سبيل الله تعالى ، والّذى هو ذروة سنام الإيمان . رهى نعمة إرسال الله تعالى ريحاً وجنوداً على الأحزاب الّذين جاءوا من فوق المسلمين ومن أسفل منهم . ويلاحظ أن التحلّى بصفة التقوى هى التى تطلب منه ﷺ ، وهى أعلى الصفات الّتى تطلب من المؤمن . وبذلك هى تتمشى مع مقام النبوة . وإنّ ما يطلب من المؤمنين يعتبر أهمّ الأسباب المؤدية بهم بإذن الله تعالى ، إلى التحلّى بصفة التقوى هذه . ومن ثمّ فالمطلوب من المؤمنين مساو لمستواهم الإيمانى الّذى تعتبر التقوى قمته . إنّ المصطفى ﷺ يطلب منه التقوى . وما أكثر سبلها الّتى وفق الله تعالى خير خلقه لسلوكها . وإنّ المؤمنين يرشدهم ربّ العزّة إلى واحد من تلك السُّبل ، الّتى تنتهى بهم بفضله جلّ وعلا ، إلى التحلى بتلك الصّفة . فما أرأفه جلّ وعلا بعباده .

وحينما يكون المؤمنون على ذكر دائماً وأبداً بمثل هذه النعمة ، يكونون بفضل الله تعالى خير الشّاكرين . وكيف ينسى المؤمنون المتقون نعمة الله تعالى الكبرى عليهم ويكفرونها ، وهم يعلمون جيّداً أنّ نصر الله تعالى لهم ، هو الّذى أنقذهم من موت محقّق ، فقد رمتهم العرب عن قوس واحدة . وليهود بنى قريظة دور كبير فى تسديد ذلك السّهم المسموم إلى صدور المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ . ولكن الله تعالى سلّم كما سلّم من قبل فى أحد .

ولنتأمل لفظة النّعمة الّتى جاءت فى الآية الكريمة والّتى كادت تكون لولا رحمة الله تعالى ، نقمة . وهى نعمة باعتبار المصير والعاقبة . وفى هذا درسٌ بليغٌ للمؤمنين المتقين بأنّ العاقبة للمتقين ، وتطبيق عملىّ لقوله تعالى من سورة محمّد عليه الصلاة والسلام[1] ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم** ﴾ .

وتأمّل وراء ذلك اشتمال صدر الآية الكريمة على لفظ الجلالة « **الله** » وليس الضّمير العائد على الذّات العليّة ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ إنّ اسم الضّمير لو جاء لأدّى الغرض . وإنّ مجىء لفظ الجلالة على جهة

---

(١) الآية ٧ .

الخصوص ، له القدرة هنا على التنبيه على ضخامة هذه النّعمة الّتى لا يد للمسلمين فى تحققها ، بل لا علاقة لبشر بها مطلقا . إنّ هذه النّعمة منه جلّ وعلا لم يجرها الله تعالى على يد أحد من البشر . وبقدر ما كانت نعمة على فريق المؤمنين ، كانت نقمة على الفريق المحارب لله ورسوله . وإنّ ذكر لفظ الجلالة بصريح اللفظ ، له دوره البليغ فى الإيحاء بعظمة هذه النّعمة الّتى خصّ الله تعالى وحده لا شريك له المؤمنين المتقين بها . وهذا النّصّ المقتبس من تفسير القرطبى مسعفٌ على تمثّل تلك النّعمة على حقيقتها ، والدّور البليغ للفظ الجلالة « **الله** » يقول رحمه الله تعالى[1] : « وكانت هذه الرّيح معجزة للنبى ﷺ . لأنّ النبى ﷺ والمسلمين كانوا قريبا منها ، لم يكن بينهم وبينها إلاّ عرض الخندق . وكانوا فى عافية منها ، ولا خبر عندهم بها » وجاء فى تفسير ابن كثير[2] « وإذا الرّيح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا » .

وتأمل بعد ذلك جملة جاء الّتى تدلّ على القرب المكانى هنا ، وليس جملة أتى الّتى تدلّ على البعد فى قوله تعالى ﴿ **إذ جاءتكم جنود** ﴾ إنّه بتدبُّر كلّ استعمالات القرآن الكريم لجملتى أتى وجاء تبين أنّ جملة أتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلا على البعد المكانى أو الزّمانى أو النفسى . وأن جملة جاء لا تستعمل إلاّ دليلاً على القرب المكانى أو الزّمانى أو النفسى . وهاهى ذى جملة جاء ، بكلّ معانى القرب الملابسة لها ، تجىء فى الآية الكريمة دليلاً على قرب مكان الأحزاب من جيش المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ . والمعروف أنّه لم يكن يفصل بين الجيشين سوى الخندق الّذى أمر المصطفى ﷺ بحفره بين اللاّبتين الشّرقية والعربية ، حرّة واقم وحرّة الوبرة ، وذلك بإرشاد من سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه . وقد ارتبط بقرب الكافرين من المؤمنين مكاناً ، حلول الكثير من الخوف والظّنون المختلفة بهم ، على نحو ما بينت الآيتان الكريمتان التّاليتان . قال تعالى : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظّنون بالله الظّنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا** ﴾ وقد نكرت الآية الكريمة مرتين لفظة الجنود ، دليلاً على كثرة هذه الجنود ونواياهم الشديدة السّوء بالمؤمنين .

---

(١)تفسير القرطبى ص ٥٢٢٦ .

(٢) ٤٧٢/٣ من حديث حذيفة بن اليمان .

لقد جاء بشأن جيش الأحزاب قوله تعالى : ﴿ إذ جاءتكم جنود ﴾ وأكثر العلماء قد ذهبوا إلى كون جيش الأحزاب قد بلغ عشرة آلاف مقاتل[1] ومنهم من وصل بذلك العدد إلى خمسة عشر ألف مقاتل[2] وكان جيش النبى ﷺ يتكوّن من ثلاثة آلاف مقاتل[3] وهذا معناه أنّ جيش الأحزاب فى أقلّ التقديرات يزيد على ثلاثة أمثال جيش المصطفى ﷺ . وإليك ما يقول ابن كثير فى تفسيره بشأن غزوة الخندق أو الأحزاب[4] : « عام الخندق وذلك فى شوّال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور . وقال موسى بن عقبه وغيره : كان فى سنة أربع . وكان سبب قدوم الأحزاب أنّ نفراً من أشراف يهود بنى النضير الّذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر ، منهم سلام بن أبى الحقيق ، وسلام بن مشكم ، وكنانة ابن الرّبيع ، خرجوا إلى مكّة فاجتمعوا بأشراف قريش وألّبوهم على حرب النبى ﷺ ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة فأجابوهم إلى ذلك . ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً . وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب . وعلى غطفان عيينه بن حصن بن بدر . والجميع قريبٌ من عشرة آلاف . فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم ، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة ممّا يلى الشرق . وذلك بإشارة سلمان الفارسى رضى الله عنه . فعمل المسلمون فيه واجتهدوا . ونقل معهم رسول الله ﷺ التّراب وحفر وكان فى حفره ذلك آياتٌ ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريباً من أُحُد . ونزلت طائفة منهم فى أعالى أرض المدينة كما قال الله تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾... وكانت بنو قريظة ، وهم طائفة من اليهود ، ولهم حصن شرقى المدينة ، ولهم عهد من النبى وذمة . وهم قريبٌ من ثمانمائة مقاتل . فذهب إليهم حيى بن أخطب النضرى . فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالئوا الأحزاب على رسول الله ﷺ . فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال . كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٧٠/٣ والكشاف ٥٣٢/٢ والبحر المحيط ٢١٦/٧ وتفسير الطبرى ٨٢/٢١ .

(٢) البحر المحيط ٢١٦/٧ .

(٣) البحر المحيط ٢١٦/٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٧٠/٣ .

وقد بين أبو حيّان فى البحر المحيط أسماء قادة الأحزاب بشيء من التفصيل يقول[1] : « والجنود كانوا عشرة آلاف . قريش ومن تابعهم من الأحابيش فى أربعة آلاف ، يقودهم أبو سفيان . وبنو أسد يقودهم طليحة . وغطفان يقودهم عيينة . وبنو عامر يقودهم عامر بن الطّفيل . وسليم يقودهم أبو الأعور . واليهود ، النضير ، رؤساؤهم حيى بن أخطب وابنا أبى الحقيق . وبنو قريظة سيّدهم كعب بن أسد . وكان بينه وبين الرّسول عهد فنبذه بسعى حيى بن أخطب . وقيل : فاجتمعوا خمسة عشر الفا . وهم الأحزاب . ونزلوا المدينة . فحفرو الخندق بإشارة سلمان » .

وبهذا يتبين أنّ الجنود الّذين جاءوا المؤمنين فى غزوة الأحزاب هم فى المقام الأوّل قريش وأحابيشها . وغطفان وحلفاؤها . وذلك بتحريض من زعماء بنى النضير الموتورين الّذين أجلاهم المصطفى ﷺ سنة أربع من الهجرة[2] كما يتبين أنّ يهود بنى قريظة ، هم الّذين طعنوا المسلمين فى ظهورهم من داخل المدينة المنورة وذلك بنقضهم العهد الّذى كان بينهم وبين النبى ﷺ .

وإذا كان من متعلقات تنكير لفظة جند فى قوله تعالى : ﴿ إذ جاءتكم جنود ﴾ إفادة الكثرة ، فإنّ هذا المتعلق هو الّذى يفهم بشأن تنكير جند الله تعالى الّذين أرسلهم على الأحزاب بصحبة ريح العذاب الصّرصر العاتية الباردة . قال تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ﴾ .

ويلاحظ أنّ جنود العذاب الّتى قابلت جنود الأحزاب ، قد ارتبط بها ريح العذاب . وليس لهذه الرّيح فى جيوش الأحزاب مقابل . وقد أفاد القول : فأرسلنا عليهم ، بمعنى سلّطنا عليهم ، بعض مظاهر العذاب الّتى ارتبطت بإرسال الرّيح والجنود والّتى حلّت بالأحزاب . وإنّ كلاً من هذه الملابسات بحاجة إلى أن نقف عنده على حدة .

وأوّل ما يلاحظ أنّ جملة أرسل عدّيت بحرف الجرّ على الدّال على الاستعلاء ، وليس حرف الجرّ إلى مثلا ، الّذى يفيد مجرّد التّعدية . وبهذا تضمن القول : أرسلنا عليهم ، معنى سلطنا عليهم ، هذا بالإضافة إلى أنّ جملة أرسل ، هى التى تتمشى

---

(١) البحر المحيط ٢١٦/٧ .

(٢) السّيرة النبوية (محمّد محى الدّين عبد الحميد) ١٩١/٣ .

مع لفظة الرّيح . وقد جاء فى الحديث عن المصطفى ﷺ بأنّه أجود بالخير فى رمضان حين يلقاه جبريل عليه السّلام من الرّيح المرسلة[1] وهى كذلك الّتى تتمشى مع لفظة جنود بهذه المناسبة ، لأنّ هذه الجنود من نوع خاص قريب الشّبه بالرّيح ومن جنسها . إنهم ملائكة العذاب . فريح العذاب مرسلة . وملائكة العذاب مرسلة . ومعروف أنّ الترابط فى القرآن الكريم وثيق بين إرسال الرّيح وإرسال الملائكة ، فى مثل قوله تعالى[2] : ﴿ **والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والنّاشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا** ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ **والذّاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا** ﴾.

وثمة علاقة وثيقة بين هذا النّوع من الإرسال من ناحية ، وبين كون المرسل ريح العذاب وملائكته من ناحية أخرى . أمّا هذه العلاقة فهى علاقة العنف والشدة . لقد تبينا العنف والشدة من القول : « **فأرسلنا عليهم** » بالمعنى الّذى بينا . ونودّ أن نبين حظّ كلّ من الرّيح والجنود من ذلك . إنّه فيما يتصل بالرّيح فالملاحظ أنّ اللفظ المستعمل مفرد . وقد استقر فى عرف العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم أنّ ريح العذاب لا تكون إلاّ ريحاً واحدة . أمّا حينما تكون ثمّة رحمة ، فإنّ صيغة الجمع هى التى تستعمل . لأنّ ريح الرّحمة نتاج أكثر من ريح . وإنّ هذا الذى يفهمه العرب من الواقع جيدا ، هو الّذى عمقه القرآن الكريم ، حينما نتبين أنّه فى حالة العذاب تجىء صيغة الإفراد . وفى حالة الرّحمة تجىء صيغة الجمع . وبيّن الحديث النبوى الشريف الصحيح ، الدّور القوى للرّيح المفردة . ورى عنه ﷺ أنّه قال : نُصرْت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدّبور[4] روى « عبد الله بن عمرو عن نافع عن عبد الله قال : أرسلنى خالى عثمان بن مظعون ليلة الخندق فى برد شديد ، وريح إلى المدينة فقال : ائتنا بطعام ولحاف . قال : فأستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لى وقال : من لقيت من أصحابى فمرهم يرجعوا . قال : فذهبت والرّيح تسفى كلّ شىء .

---

(١) صحيح البخارى ٣٣/٣ .
(٢) سورة المرسلات ١ – ٦ .
(٣) سورة الذّاريات ١ – ٤ .
(٤) الكشّاف ٥٣٢/٢ وتفسير القرطبى ص ٥٢٢٦ وتفسير ابن كثير ٤٧٠/٣ .

فجعلت لا ألقى أحداً إلاّ أمرته بالرّجوع إلى النبى ﷺ . قال : فما يلوى أحد منهم عنقه . قال : وكان معى ترس لى . فكانت الرّيح تضربه على . وكان فيه حديد . قال : فضربته الرّيح حتّى وقع بعض ذلك الحديد على كفّى فأنفذها إلى الأرض[1]» وعن مجاهد قوله : « إذ جاءتكم جنود قال : الأحزاب عيينة بن بدر ، وأبو سفيان . وقريظة . وقوله : فأرسلنا عليهم ريحاً قال : ريح الصّبا ، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق ، حتّى كفأت قدورهم على أفواهها ، ونزعت فساطيطهم حتّى أظعنتهم . وقوله : وجنوداً لم تروها ، قال : الملائكة ولم تقاتل يومئذ .. قتادة .. فذكر لنا أنّهم كلّما أوقدوا نارا أطفأها الله . حتى لقد ذكر لنا أنّ سيّد كلّ حىّ يقول : يا بنى فلان : هلم إلىّ . حتى إذا اجتمعوا عنده فقال : النجاء النجاء أتيتم . لما بعث الله عليهم من الرّعب».[2] وجاء فى تفسير القرطبى[3]«: قال المفسرون : بعث الله تعالى عليهم الملائكة ، فقطعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها فى بعض . وأرسل الله عليهم الرّعب . وكثر تكبير الملائكة فى جوانب العسكر حتى كان سيّد كل خباء يقول : يا بنى فلان : هلمّ إلىّ . فإذا اجتمعوا قال لهم : النجاء النجاء لما بعث الله تعالى عليهم من الرّعب » .

ويلاحظ وراء ذلك أنّ كلاً من الرّيح والملائكة لا ترى . وقد نصّت الآية الكريمة ، فى معرض المنّ على المؤمنين ، بأنّ تلك الجنود لم يرها المؤمنون ، تماماً كالرّيح الّتى لا تُرى أصلاً . ونحن فى حقيقة الأمر أمام مظهر من أكبر مظاهر فضل الله تعالى على المؤمنين المتقين . إنّهم لا يد لهم مطلقا فى النّصر الّذى امتن الله تعالى به عليهم ، والهزيمة الّتى ألحقها جلّ وعلا بأعدائهم الّذين صمموا على استئصالهم ، للدّرجة الّتى لا يرى معها المؤمنون تلك الجنود . إنّ أبسط أنواع المجهود المبذول الّذى يتجلى فى إلقاء نظر المؤمنين على جند الله تعالى الّذين يقاتلون دونهم ، لم تشأ العناية الإلهية أن تكلّفهم به . إنّ الرّيح لا تُرى . وإنّ الملائكة لا تُرى . وقد حقّق الله تعالى نصر المؤمنين ، عن طريق كلّ من الرّيح والملائكة . ولم يبذل المؤمنون أبسط

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢١/٨٠ .
(٢) تفسير الطبرى ٢١/٨١ .
(٣) ص ٥٢٢٦ .

مجهود فى تتبع أولئك الجنود بعيونهم ، ممّا يعتبر مظهراً من أكبر مظاهر رضا الله تعالى عن هؤلاء المؤمنين المتقين . ونحن فى حقيقة الأمر كذلك أمام دليل عملى على ما يمكن وينبغى فهمه من قوله تعالى فى سورة محمّد عليه السلام[1] : ﴿ **يا أيها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم** ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إنّ الله لقوى عزيز** ﴾ وقوله تعالى [4] : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون** ﴾ .

وإنّ واجب المسلمين فى كل زمان ومكان ، أن يستفيدوا فى مجال الدّعوة والجهاد من مثل هذا الدّرس القرآنى البليغ . وإليك هذا النص الّذى يبيّن فضل الله تعالى على المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ فى ذلك الظّرف العصيب وهو من كلام حذيفة ابن اليمان رضى الله تعالى عنه عن غزوة الأحزاب «فجعل المنافقون يستأذنون النبى ﷺ ويقولون : إنّ بيوتنا عورة وما هى بعورة . فما يستأذنه أحد منهم إلاّ أذن له . ويأذن لهم فيتسللون ، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك ، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلا رجلا حتى أتى علىّ . وما على جنة من العدو ولا من البرد إلاّ مرط لامرأتى ما يجاوز ركبتى . قال : فأتانى ﷺ وأنا جاث على ركبتى فقال : من هذا ؟ فقلت حذيفة : قال : حذيفة فتقاصرت الأرض فقلت : بلى يا رسول الله ، كراهية أن أقوم فقمت فقال : إنّه كائن فى القوم خبر فائتنى بخبر القوم . قال : وأنا مِنْ أشدّ النّاس فزعا وأشدهم قرّا . قال : فخرجت . فقال رسول الله ﷺ : اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته . قال : فوالله ما خلق الله فزعا ولا قرا فى جوفى إلاّ خرج من جوفى فما أجد فيه شيئاً . قال : فلما ولّيت قال ﷺ : يا حذيفة ، لا تحدثنّ فى القوم شيئاً حتى تأتينى .. وإذا الرّيح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا .. وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلّى فأخبرته خبر القوم ، وأخبرته أنى تركتهم يرتحلون . وأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الّذين آمنوا**

---

(١) الآية ٧ .
(٢) سورة الرّوم ٤٧ .
(٣) سورة الحجّ ٤٠ .
(٤) سورة الصّافّات ١٧١ - ١٧٣ .

اذكروا ﴾[1] .

وقد تضمّن تذييل الآية الكريمة : ﴿ وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ حيثيات نصر الله تعالى للمؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيله جلّ وعلا الصابرين الصّادقين الحريصين على إحدى الحسنيين ، النّصر أو الشّهادة . ويكفى أن نتمثل الخندق العظيم الّذى تعاون أولئك المؤمنون المتقون ، بقيادة المصطفى ﷺ على حفره . ويكفى كذلك أن نتمثل ذلك الجيش القليل العدد والعدّة ، الكثير بإيمانه وتقواه وصبره ، وهو مرابط ليلا ونهارا ، فى القرّ والحرّ ، والجوع ، والضرّ . إنّ الوعد الّذى أخذه الله تعالى على نفسه قد تحقق حينما هزم جلّ وعلا الأحزاب وحده .

وهاهى ذى الآية الكريمة تذكّر المؤمنين بتلك النعمة العظمى ، وذلك بالاستمرار فى عمل الصالحات التى استحقوا من أجلها النّصر فى غزوة الأحزاب وقريظة . وإنّ هذا الدرس بليغ للمسلمين فى كل زمان ومكان . إنّ عليهم كما أمرهم القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، أن يذكروا الله تعالى فى الرّخاء كى يذكرهم فى الشدة . قال عزّ من قائل[2] : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الّذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ وقال عز من قائل[3] : ﴿ **له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إنّ الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا** ﴾ .

ونتحول إلى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** ﴾ والآية الكريمة ، كما هو واضح ، تتحدّث عن مجىء جيوش الأحزاب إلى المدينة

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٧١ .

(٢) سورة النور ٥٥ .

(٣) سورة الرعد ١١ .

المنورة ، من فوق المؤمنين ، أي من أعلى الوادى . ومن أسفلهم ، أى تحت الوادى . وقد تجلى الكرب الذى كان فيه المؤمنون فى أعينهم الّتى زاغت فلم تستقر فى أماكنها ، وقلوبهم الّتى قفزت من مواضعها ، حتى كادت تبلغ الحناجر لشدة الهول . وقد ذهبت بالمؤمنين الظّنون كل مذهب ، بين اليقين فى نصر الله تعالى أخيراً ، وبين استبطاء النصر ، وربما استبعاده ، بسبب صعوبة الأمر الواقع ، رغم وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر .

إنّ ابتداء الآية الكريمة بإذ . الّتى سبق أن جاءت فى الآية الكريمة السّابقة ، معمولة للقول : اذكروا . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود** ﴾ يجعلنا نذهب إلى القول بأنها كذلك معمولة للعامل المحذوف ذاته والتقدير : « اذكروا إذ جاءوكم من فوقكم » فلازال الحديث مرتبطا بالنعمة المطلوب من المؤمنين أن يتذكروها . يقول القرطبى[1] : « إذ فى موضع نصب بمعنى واذكر » .

وإنّ جملة جاء الّتى جاءت فى الآية الكريمة السّابقة ، وعرفنا بأن من متعلقاتها القرب المكانى هنا فى المقام الأوّل ، هى التى تجىء هنا ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ﴾ وهذا معناه أنّ الآية الكريمة هنا إنما تعنى بالمجىء الفعلى لجيوش الأحزاب ووصولهم إلى الأماكن التى استقروا بها أعلى المدينة وأسفلها . أما المسافات الطّوال الّتى قطعتها تلك الجيوش إلى أن وصلت إلى المدينة فإنها معروفة ضمنا . وبهذا توحى جملة جاء فى الآية الكريمة بأمرين ، حركة تلك الجيوش من أماكنها إلى مستقرها فى المدينة المنورة . وهذا أمرٌ مفهوم ضمنا ، بسبب ملازمته للأمر الثّانى ، وهو المجىء فعلا إلى المدينة المنورة ، والنزول أمام جيش المسلمين . بحيث إنّ الخندق فقط ، هو الذى يفصل بين الجيشين . ومعروف أنّ الجيوش التى تلك صفتها هى جيوش قريش وأحابيشها ، وغطفان وأتباعها . أمّا يهود بنى قريظة فقد كانت خيانتهم داخلية ، وطعنتهم للمسلمين من الخلف . وبناءً على ذلك نستطيع أن نفهم أنّ أحد الفريقين من الأحزاب هو الّذى جاء من فوق المؤمنين . وأنّ ثانى الفريقين هو الّذى جاء من أسفلهم . قال تعالى : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم** ﴾ وفى ضوء معرفة

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٢٦ .

موقع المدينة المنورة بالنسبة لجيوش الأحزاب القادمة إليها ، نستطيع أن نفهم المكان الّذى حط فيه كلّ من الفريقين ، بأعلى المدينة أو بأسفلها . وأوّل ما نود الوقوف عنده مجيء الضمير العائد إلى المؤمنين المخاطبين مرّتين فى القول : ﴿ من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾ وهذا معناه أنّ كلاً من الفوق والسُّفل ، إنّما هو بالقياس إلى المؤمنين المخاطبين . بمعنى أنّ أحد الفريقين حطّ رحاله فى المكان العالى بالقياس للمؤمنين . وأنّ الفريق الآخر حطّ رحاله فى المكان الّذى يقع أسفل المؤمنين . وكان المؤمنون بين الفريقين ، وأبصارهم موزعة زائغة ، بين من يعلونهم ذات اليمين ، ومن يسفلونهم ذات الشمال .

إنّ الرّوايات مجمعة على أنّ غطفان ومن لف لفها جاءت المدينة المنورة بقصد استئصال شأفة المسلمين ، متعاونين فى ذلك مع قريش وأحابيشها ، وكذلك مع اليهود .

فأين موقع غطفان بالقياس إلى المدينة المنوّرة ؟ موقع غطفان إلى الشرق من المدينة المنوّرة حيث الأعالى الّتى هى استمرار لأعالى شرق المدينة المنورة إلى هضبة نجد . وبما أن غطفان وأتباعها جاءت من جهة الشرق من جهة الأعالى ، فهذا معناه – والله تعالى أعلم – أنّهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ﴾ .

أمّا موقع قريش بالقياس إلى المدينة المنوّرة فإنّه إلى جنوبها . وأمّا المجيء إلى المدينة المنوّرة من قبل القرشيين ، فالمعروف أنّه إنّما يتم من غربها وشمالها الغربى ، أى من أسفلها . لأنّ شمال غرب المدينة المنوّرة يمثّل أسفل المدينة المنوّرة ، وهو استمرار لانحدار المدينة المنوّرة غربا إلى سهل تهامة . إنّ بيئة المدينة المنوّرة ذاتها تقع بين هضبة نجد شرقا وسهل تهامة غربا . ومن الطّبيعى إذن أن تأتى قريش وأحابيشها مِنْ هذه الناحية . وذلك معناه – والله تعالى أعلم – أنّ قريشا وأحابيشها ، هم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ ومن أسفل منكم ﴾ «مجاهد : إذ جاءوكم من فوقكم قال : عيينة بن بدر فى أهل نجد . ومن أسفل منكم قال أبوسفيان[1] »ويقول الزّمخشرى[2] «من فوقكم ، من أعلى الوادى من قبل المشرق ، بنو غطفان . ومن أسفل منكم ، مِنْ

---

(١) تفسير الطّبرى ٨١/٢١ وانظر البحر المحيط ٢١٦/٧ .

(٢) الكشّاف ٥٣٢/٢ وانظر البحر المحيط ٢١٦/٧ .

أسفل الوادى من قبل المغرب ، قريش تحزّبوا قالوا سنكون جملة واحدة حتى نستأصل محمداً» ولننظر إلى مايقول ابن جرير الطبرى، بشأن الأماكن الّتى نزلت فيها كل من غطفان وقريش وأتباعهما . يقول[1] فلما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق ، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة[2] بين الجرف[3]والغابة[4] فى عشرة

---

(١) تفسير الطبرى ٨٢/٢١ وفيه أن الّذين حزبوا الأحزاب ضدّ رسول الله ﷺ وضدّ المسلمين نفر من النضير ونفر من بنى وائل وقالوا لكفار مكّة : دينكم خير من دين محمد ﷺ .

(٢) رومة ، بضمّ الرّاء وسكون الواو . أرض بالمدينة بين الجرف وزغابة نزلها المشركون عام الخندق . وفيها بئر رومة . اسم بئر ابتاعها عثمان بن عفّان رضى الله عنه وتصدّق بها . ياقوت . زغابة بالفتح فى الأوّل ، وبعد الألف باء موحدة . قال ابن إسحاق : ولمّا فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتّى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة ، بين الجرف وزغابة فى عشرة آلاف من أحابيشهم . ورواه أبو عبيد البكرى الأندلسىّ زُعابة بضمّ الزّاى وعين مهملة ياقوت . معجم البلدان .

(٣) الجرف بالضمّ ثمّ السّكون . وهو أساسا ما تجرّفته السّيول فأكلته من الأرض . والجرف موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشّام . به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة . وفيه بئر جشم وبئر جمل .. وكان يُسَمَّى العِرْض (بكسر العين) وفيه قال كعب بن مالك :

إذا ماهبطنا العِرْض قال سراتنا ... علام إذا لم نمنع العِرْض نزرع ؟

وذكر هذا الجرف فى غير حديث . قال كعب بن الأشرف اليهودى النضيرى :

ولنا بئر رواء جمة ... من يردها بإناء يغترف

تُدلج الجوْن على أكنافها ... بدلاء ذات أمراس صُدُف

كل حاجاتى بها قضيتها ... غير حاجاتى على بطن الجرف

(انظر ياقوت) ويقال : ماء رواء ، ممدود مفتوح الرّاء أى عذب (اللسان) « ودلج السّاق يدلِج ويدلُج، بالضمّ دلوجا ، أخذ الغرب من البئر فجاء بها إلى الحوض والدالج الّذى يتردّد بين البئر والحوض بالدّلو يفرغها فيه (اللسان) أكنافها جوانبها ونواحيها . وأمراس : حبال . صدف جمع صدوف ، وهى أساساً المرأة تعرض لك وجهها ثمّ تصدف عنك . شبه بها حبال البئر لأنها لا تزال تظهر وتختفى عند ملء الدّلاء (انظر الأغانى ١٣١/٢٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب) وإذا كان الجرف يسمى العرض ، فالعرض بكسر أوّله وسكون ثانيه وآخره ضاد معجمة .. يقال لكلّ واد فيه قرى ومياه عِرْض . وقال الأصمعى : أخصب ذلك العِرْض ، وأخصبت أعراض المدينة ، وهى قراها الّتى فى أوديتها . وقال شمر : أعراض المدينة بطون سوادها حيث الزروع والنخل . وقال غيره : كلّ واد فيه شجر فهو عرض ياقوت .

(٤) الغابة موضعٌ قرب المدينة من ناحية الشّام فيه أموال لأهل المدينة وهو المذكور فى حديث السّباق : مِن الغابة إلى موضع كذا . ومن أَثْل الغابة . وفى تركة الزّبير اشتراها بمائة وسبعين ألفا . وبيعت فى تركته بألف ألف وستمائة ألف .. وقال الواقدى : الغابة بريد من المدينة على طريق الشّام . وصنع منبر رسول الله ﷺ من طرفاء الغابة وروى محمد بن الضحاك عن أبيه قال : كان العباس بن عبد المطلب يقف على سلع فينادى غلمانه وهم بالغابة فَيُسْمِعُهمْ وذاك من آخر الليل . وبين سلع

آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من كنانة وأهل تهامة . وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى[1] إلى جانب أحد[2] »

أما وقد عرفنا من المجيء الّذى نصّت عليه الآية الكريمة وصول الأحزاب فعلاً ، ومن ضمير جماعة المخاطبين العائد على المؤمنين والّذى جاء مرّات ثلاثا ، أنّ الوصول والقرب ، فوق المؤمنين وأسفل منهم ، إنّما هما بالقياس إلى المؤمنين أنفسهم . أمّا المسافات الطّوال التى قطعها الأحزاب حتّى وصلوا إلى المدينة المنوّرة ، فإنها مفهومة ضمنا ، ومسكوت عنها ، بسبب الفهم الضمنى لها ، ولأنّ هدف الآية الكريمة التّركيز على المجيء الفعلى لجيوش الأحزاب ، من فوق المؤمنين ومن أسفلهم ، فإنّا نودّ وراء ذلك أن نبين أن الأحزاب ، وهم فريقان رئيسيّان ، وقد أرادوا أن يطبقوا على المؤمنين إطباق الرّحى لم يكن لديهم من وسيلة لذلك إلاّ أن تأتى غطفان وحلفاؤها من أعلى المؤمنين ، وتنزل الجهة الشمالية الشرقية من المدينة المنوّرة الّتى تنحدر إلى الغرب . وذلك امتداد للمكان العالى الّذى جاءوا منه ، أعنى نجد الجزيرة العربية . وإلاّ أن تأتى قريش وحلفاؤها من أسفل المؤمنين ، وتنزل الجهة الشمالية الغربية من المدينة المنوّرة الّتى عرفنا انخفاضها ، وذلك امتداد للمكان المنخفض الّذى سلكوه وجاءوا منه ، أعنى تهامة الحجاز ، غرب الجزيرة العربية .

أمّا أن غطفان وقريشا ، لم يكن فى استطاعتهم إلاّ أن يكونوا على التّوالى أعلى المؤمنين وأسفل منهم ، وفى هذين المكانين بالذات ، فلأنّ هذه الجهة الشمالية للمدينة المنوّرة ، هى الجهة الوحيدة من جهات المدينة المنوّرة الأربع التى يمكن للجيوش النظامية أن تخترقها ، كى تصل إلى قلب المدينة المنوّرة . إنّ هذه الجهة الشمالية هى الجهة الوحيدة العورة ، ولذلك حصّنها المصطفى ﷺ بالخندق الّذى

= والغابة ثمانية أميال . ياقوت . وانظر آثار المدينة المنوّرة ص ١٨٠ ففيه أنّ الغابة شمالى المدينة المنوّرة غربى جبل أحد .

(١) نقمى بالتحريك والقصر ، من النقمة وهى العقوبة ، مثل الجمزى من الجمز : موضع من أعراض المدينة ، كان لآل أبى طالب . قال ابن إسحاق : أقبلت غطفان يوم الخندق ومن تبعها من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى ، إلى جنب أحد . ياقوت . وفى القاموس«نقم»موضع من أعراض المدينة .

(٢) أحد : الجبل المشهور شمال المدينة المنوّرة ، والّذى كانت لديه موقعة أحد .

أشار بحفره سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه[1] أمّا الجهات الثّلاث الباقية ، الشّرقية والغربية والجنوبية ، فقد كانت حصينة بذاتها . ففى الشرق والغرب توجد حرّتان رئيسيّتان هما الحرّة الشرقية أو حرّة واقم ، والحرّة الغربية أو حرّة الوبرة . وترتبط بهما مجموعة من الحرار الصغيرة . وبما أنّ الحرار بطبعها عبارة عن حجارة بركانية نخرة لا تستطيع الخيل والإبل أن تخترقها دون أن تنال أذى بليغا ، خاصة بشأن ذلك الجيش الجرّار الّذى قوامه عشرة آلاف مقاتل ، والذى لم تجيش العرب مثله قبل ذلك ، يضاف إلى ارتباط التّربة الشّديدة الخصوبة بالأراضى البركانية ممّا ينشىء البساتين ويغرى السّكان بالاستقرار الّذى يرتبط به نوع من البناء ، لكلّ ذلك كانت الجهتان الشرقية والغربية فى مأمن من أن يأتى منهما إلى المدينة أى جيش نظامىّ . فإذا تحوّلنا إلى الجهة الجنوبية تبيّناً أنّ هذه الجهة يتخللها بوضوح أشجار النخيل والبساتين والمساكن . والمنافذ خلالها عبارة عن أزقة ضيّقة ، لا يستطيع جيش نظامى أن يتخللها ، تماماً كما لايستطيع أن يتخلل الحرّة . ولو حاول الجيش النظامى ذلك فإنّ حاميات قليلة العدد كافية لتكبيد العدو خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد ، وردّه على أعقابه . فلم يبق إذن لجيوش الأحزاب إلاّ أن تأتى من جهة الشّمال الّتى حصّنها المصطفى ﷺ بالخندق . وبما أن غطفان قدمت من جهة الشرق الّذى يمثل أعلى الجزيرة العربية ، فقد كان مجيئهم معناه أنهم سينزلون بالضّرورة الجهة الشمالية الشرقية وهى عالية بطبعها ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم** ﴾ وبما أنّ قريشا قدمت من جهة الغرب الّذى يمثّل أسفل الجزيرة العربيّة ، فقد كان مجيئهم معناه أنّهم سينزلون بالضّرورة الجهة الشمالية الغربية ، وهى منخفضة بطبعها ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى : ﴿ **ومن أسفل منكم** ﴾ .

وكي نعطى أقرب مثل وأوضحه على انحدار شمال المدينة المنوّرة من الشّرق إلى الغرب ، وهو ما يهمّنا هنا ، أنّ وادى قناة ، حينما يسيل ، وهو المكان الّذى وقعت فيه موقعة أحد ، وبه قبر سيّد الشّهداء حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه وعن كلّ الشهداء أجمعين ، فإنّ السّيل يتجه من الشّرق إلى الغرب . من الشّرق حيث نزلت غطفان إلى الغرب حيث نزلت قريش . والمعروف أنّ قريشاً نزلت بمجتمع

---

(١) السيرة النبوية ٣/ ٢٤٠ (محمّد محى الدّين عبد الحميد) .

الأسيال من رومة . وبرومة توجد بئر رومة أوبئر عثمان رضى الله تعالى عنه الّتى ابتاعها . وأنت إذا ذهبت اليوم إلى المدينة المنوّرة حيث المزرعة النّموذجية تستطيع أن تقف على بئر رومة الّتى أريد للمزرعة أن تستفيد من مائها ، ولكن البئر اليوم جافّة تماماً . إنّ البئر تقع على بعد بضع مئات من الأمتار إلى الشمال الشرقى من جبل سلع ، بحيث تفصل السّكة الرّئيسية المعبدة بين مسجد الخندق غرباً وبئر رومة شرقاً . قال تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾ فوق نقيض تحت ، يكون اسما وظرفاً مبني . فإذا أضيف أعرب[1] والسفل والسفول والسُّفالة بضمهن . والسّفل والسّفلة بكسرهما . والسَّفال بالفتح نقيض العُلْو والعُلُوّ والعُلاوة (بالضم فيها) والعلْو والعلوه (بالكسر فيهما)والعَلاء (بالفتح) والأسفل نقيض الأعلى .. وسفالة (بضم السّين) كل شيء أسفله .. والمسفلة (بفتح الميم) محلة بأسفل مكة[2] .

أما وقد جاء الأحزاب من فوق المسلمين ومن أسفل منهم ، عن يمينهم وشمالهم ، فى ذلك الجيش اللّجب ، الّذى لم تكد الجزيرة العربية تعرف قبله مثله ، بينما المسلمون زهاء ثلاثة آلاف مقاتل فقط سلاحهم الأكبر الإيمان ، فمعنى هذا أن أبصار المسلمين ستظل الوقت كلّه موزّعة بين هؤلاء وهؤلاء ، متوقعة كلّ لحظة هجوم الأحزاب ليلا أو نهارا . من كلّ المنافذ الممكنة ، والمحتمل هجوم الأعداء منها . إذن فليكن المسلمون كلّهم حذرا ويقظة ، فإنّ عدوّهم لا يرحم ، ولازالوا يتمثّلون جيدا فعله بهم قريبا فى أحد ، ولم يكن هو آنذاك فى مثل هذا العدد ولا قريب منه . وقد ارتبط بزيغان الأبصار وميلها عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا[3] وعدم استقرارها لحظة من اللحظات ، وجيب القلوب واضطرابها ، حتى لكأنّها لا تريد أن تستقر فى مواضعها . بل أن تثب وتقفز من أماكنها وكأن الذى يحول بينها وبين أن تغادر الأجساد منع الحناجر لها ، لضيق ممراتها ومساربها عن أن تستوعب تلك القلوب الفزعة الخائفة الوجلة . « وقيل : إذا انتفخت الرّئة من شدة الفزع والغضب أو الغم الشّديد ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة . ومن ثمّ

---

(١) القاموس « فوق » .
(٢) القاموس « سفل » .
(٣) الكشّاف ٥٣٢/٢ .

قيل للجبان انتفخ سحره »[1] وكأنّ الرّئة المنتفخة بفعل الخوف المتمكن من النّفوس قد ساعدت القلوب على طيرانها لولا عدم مساعدة الحناجر لها على التّحليق.

« الحنجرة رأس الغلصمة[2] وهى منتهى الحلقوم[3] والحلقوم : مدخل الطّعام والشراب »[4] .

ويلاحظ أنّ هذا الشّق من الآية الكريمة الّذى يتحدّث عن المؤمنين والخوف الّذى استبدبهم ، يبدأ على غرار الشق الأوّل بإذ ﴿ **وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظنونا**﴾ وما قيل عن عامل إذ السّابقة المصرح به فى الآية الكريمة السابقة يقال هنا ، إذ التقدير : واذكروا إذ زاغت الأبصار وإذ بلغت القلوب الحناجر وإذ تظنون بالله الظنونا . كما يلاحظ أنّ رحمة الله تعالى كانت ملازمة هؤلاء المؤمنين المتقين بقيادة المصطفى ﷺ ، رغم ذلك الظرف العصيب،الذى مر بهم زهاء شهر، والّذى زاد من بلواه غدر بنى قريظة من داخل المدينة المنّورة.وكى تتضح هذه الرّحمة القريبة من المحسنين،فى إمكاننا أن نتحوّل إلى الصّفة التى خلعتها السّورة الكريمة على يهود بنى قريظة ، وقد غدوا أمام المسلمين بعد انهزام الأحزاب ، فى حال يشبه حال المؤمنين أمام الأحزاب . إنّ السّورة الكريمة تخلعُ على هؤلاء اليهود صفة لم تكن وقتا من الأوقات من نصيب المؤمنين فى أحلك المواطن . أمّا هذه الصّفة فهى الرّعب الذى قذفه الله تعالى فى قلوب هؤلاء الخائنين النّاكثين للعهود والمواثيق . قال عزّ من قائل : ﴿**وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا**﴾ وكى تتضح بدرجة أكبر ، أبعاد تلك الصّفة الشنيعة من صفات الخوف ، والتى حمى الله تعالى المؤمنين منها ، فى إمكاننا أن نتحوّل إلى ثلاثة مواضع فى القرآن الكريم استعملت فيها لفظة الرّعب ، كى يتبين أنها صفة لاحقة بأعداء الله تعالى الّذين لا مولى لهم ، وأنّها صفة بعيدة عن المؤمنين ، لأن الله تعالى مولاهم . أمّا الموضع الأوّل فهو المتعلق بإجلاء بنى النضير . جاء فى سورة الحشر الّتى تحمل اسم بنى

---

(١) البحر المحيط ٢١٦/٧ والسّحر بفتح السّين وسكون الحاء الرّئة .

(٢) الغلصمة بفتح الغين والصّاد .

(٣) الحلقوم بضمّ الحاء .

(٤) البحر المحيط ٢٠٨/٧ .

النضير قوله تعالى[1] : ﴿ **هو الّذى أخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا وظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرُّعْب يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ وأمّا الموضع الثانى فهو المتعلق بنصر الله تعالى المؤمنين يوم بدر وهم أذلة وذلك بإلقاء الرّعب فى قلوب الكافرين . جاء فى سورة الأنفال[2] قوله تعالى : ﴿ **إذ يوحى ربّك إلى الملائكة أنّى معكم فثبتوا الّذين آمنوا سألقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ وأمّا الموضع الثّالث فهو المتعلق بوعد الله تعالى قذف الرّعب فى قلوب الكافرين الّذين فعلوا فى أحد بالمسلمين ما فعلوا . قال تعالى[3] : ﴿ **سنلقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النّار وبئس مثوى الظالمين** ﴾ .

وبهذا يتبين أنّ نوع الخوف الّذى حلّ بالمؤمنين هو فى مجموعه من النّوْع الطبيعى فى أمثال هذه المواقف ، ولم يصل بسبب رحمة الله تعالى الّتى غشيتهم إلى ذلك الدّرك الأسفل المعيب الّذى يعجز الإنسان معه عن أن يفعل شيئاً لتحيره وتبلده وتمكن اليأس منه ، بدليل أنّ المؤمنين كانوا بفضل الله تعالى حذرين دائماً يقظين أبدا . وحينما اقتحمت الخندق ، من أضيق جوانبه ، مجموعة من المشركين على خيولهم ، كان المؤمنون بمنزلة الأسود الّتى تدافع عن عرينها . فلاذ المشركون بالفرار ، وارتدّوا على الأدبار مدحورين ، بعد أن قتل منهم من قتل[4] ونحن نقول إنّ هذا الخوف الّذى حلّ بالمسلمين ، بسبب رحمة الله تعالى ، طبيعى فى مجموعه ، من أجل تلك الأعمال الإيجابية التى قاموا بها دائماً . والمعروف أنّ مثل هذا الخوف ، إنّما هو وليد الحذر واليقظة والاهتمام للأمور وأخذها مأخذ الجد . فإنّ لمثل ذلك اليوم ما بعده . ولهذا نجد مثل هذه النوع من الخوف المرتبط بالإيجابية فى القتال ، والبطش بالخصوم ، يلازم أعظم الشجعان لحظة ، وذلك قبيل الالتحام الفعلى

---

(١) سورة الحشر ٢ .

(٢) الآية ١٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٥١ .

(٤) انظر هنا السّيرة النبوية ٣/٢٤١ (محمد محيى الدّين عبد الحميد) .

بالخصوم فى ميدان القتال . نجد مثل هذا الشعور وقد خامر فى الإسلام شهيد مؤته وثالث قوادها الشهداء الثلاثة الأبطال ، وهو عبد الله بن رواحة رضى الله عنه وأسكنه فسيح جنّاته[1] وها هوذارضى الله تعالى عنه يخاطب نفسه وقد استنزلها بعد استشهاد جعفر رضى الله تعالى عنه وأخذه الرّاية وتردّدها بعض التّردّ قائلا :

أقسمت يانفس لتنزلنّهْ
لتنزلن أو لتكْرهنه
إن أجلب[2] النّاس وشدّوا الرّنّه
مالى أراك تكرهين الجنّة
قد طالما قد كنت مطمئنة
هل أنت إلانطفة[3] فى شنه

وصادف مثل هذا الموقف لحظة من اللحظات الفارس الخزرجى والشاعر الجاهلى عمرو بن الاطنابة القائل :

أبت لى عفتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثّمن الرّبيح
وإقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت[4] وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

وصادفة فارس اليمن ، عمرو بن معد يكرب إذ يقول :

فجاشت إلىَّ النّفْسُ أوّل مرّة ... ورُدَّتْ على مكروهها فاستقرت

وصادفه صاعقة من صواعق الدّنيا ، قَطَرِيّ بن الفجاءة المازنى يقول :

أقول لها وقد طارت شَعاعا[5] ... من الأبطال ويحك لن تراعى

---

(١) ناقشنا هذه الظّاهرة فى كتابنا : ديوان عبد الله بن رواحة الأنصارى الخزرجى ص ٧٠ .

(٢) أجلب النّاس من الجلبة بفتح اللام وهى اختلاط الصّوت . والشّدّ : الارتفاع والتّقوية . والرّنة : الصوت .

(٣) النّطفة قليل ماء يبقى فى دلو أو قربة . والشّنّ وبهاء : القربة الخلق الصغيرة والجمع شنان .

(٤) جشأت : تطلعت ونهضت جزعا وكراهة . وجاشت غثت أو دارت للغثيان .

(٥) الشعاع بفتح الشّين : تفرّق الدّم وغيره .

ويحدث من كلّ هؤلاء الأبطال الأفذاذ ترويض للنفس على الصبر على المكروه[1] وإنّ شعور المؤمنين المتقين فى غزوة الأحزاب من هذا القبيل : « وواضح أنّ هذا الشعور طبيعى . وليس مصدره الجبن والفرق ، ولكنه التقدير الصحيح للموقف . فإنّ لذلك اليوم ما بعده، وفرق بيْن صحيح التقدير الذى هذا موقفه ، وغير صحيحه ، الذى يتوجه إلى الحرب بشىء غير قليل من اللامبالاة فيسهل أكله . وفرق بيّن كذلك بين مرهفى الإحساس دقيقى الحساب ، الذين يدركون تماماً أنّ أدنى خطأ فى التقدير ، يجرّ قومهم إلى كثير من الويلات والدّمار فكلهم إحساس وإدراك ، وبين بليدى الإحساس قاصرى الإدراك فما أسهل اصطيادهم ، وما أهونهم على أعدائهم »[2] .

إنّ زيغان أبصار المؤمنين فى مثل تلك اللحظات العصيبة أمر ليس بالمستغرب . وإنّ بلوغ القلوب الحناجر أمرٌ ليس بالمنكر ، لأنّ كلّ ذلك من الأمور الفطرية . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل بشأن القلوب الجملة التى ليس لها النظير فى الدّلالة على تمكن الخوف من تلك القلوب ، وبلوغه منها أعمق الأعماق . ولكن لم يصل الخوف بفضل الله تعالى ، إلى درجة الرّعب التى تعنى ضمنا تخليه جلّ وعلا عن القوم وغضبه عليهم . أمّا أنّ المؤمنين يظنون بالله الظنونا ، فإنّ هذه الظنون المختلفة تبعا لاختلاف أعماق الإيمان فى القلوب ، ابتداءً بقويّى الإيمان الّذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ، وانتهاءً بالّذين استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا فإنّ هذه المسألة بحاجة منا إلى أن نقول عنها شيئاً :

من الطبيعى أن تتفاوت درجات الإيمان لدى الفئة الواحدة من الفئات . وإنّ هذه الجماعة النّموذجية الإيمان ، بقيادة المصطفى ﷺ ، تجاه هذا الابتلاء من الله تعالى ، والزّلزال العظيم الّذى هزّ بعنف المؤمنين عقديا وجسديا قد تباينت مواقفها من هذه الهزة العنيفة ، تبعا لتفاوت حظّها من الإيمان . وإنّا حينما نتكلم عن هذه الفئة النّموذجية الإيمان فى مجموعها أمام هذه العاصفة ، ينبغى أن نبتدأ بالأسوة الحسنة ، والرّحمة المهداة ، والنعمة المسداة من الله تعالى . إنه محمّد بن عبد الله

---

(١) ديوان عبد الله بن رواحة ص ٧١ .

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة ص ٧١ .

ﷺ ، الّذى يقف أمام ذلك الجيش الّذى لم تكن العرب تجمع من قبل مثله . لقد كان ﷺ دائماً وأبدا هو الأسوة الحسنة ، رغم قلة جيشه عدداً وعدّة . ولكنه هو الكثير بالله تعالى . وما أشد إقباله ﷺ على بارئه ، وبخاصة فى تلك الغزوة التى قال ﷺ بعد أن هزم الله تعالى فيها الأحزاب وحده : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم[1] وإذا كان رسول الله ﷺ ، قد أعدّ للأمر عدّته المادية ، بأن حفر الخندق ، وحصّن المدينة من جميع جوانبها ، وأذكى العيون ، وبث الحاميات ، فإنّه ﷺ قبل ذلك وأثناء ذلك وبعد ذلك ، قد أعدّ للأمر عدّته الرّوحية ، بإقباله الكلى على الله تعالى ، وبخاصة عن طريق الصّلاة والدّعاء . أخرج أبو داود فى سننه : كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى[2] وحينما عاد حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه من مهمته الّتى كلّفه بها ﷺ ليلة هزم الله تعالى الأحزاب وشتّت شملهم ، وجده يصلى . ولم يتخل جلّ وعلا عن حذيفة فى ذهابه وإيابه ببركة دعاء المصطفى ﷺ . يقول حذيفة نقلا عن صحيح مسلّم[3] فرجعت كأنّما أمشى فى حمّام (ويلاحظ أن هذه هى حاله حينما ذهب إلى مهمته رغم البرد والجوع والخوف) فأتيت رسول الله ﷺ ثم أصابنى البرد حين فرغت وقررت . فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسنى من فضل هناة كانت عليه يصلّى فيها . فلم أزل نائماً حتى الصُّبح . فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ قم يا نَومان)تنبه أخى المسلم إلى هذه الدّعابة الصادقة الظريفة منه ﷺ لذلك المجاهد فى سبيل الله تعالى الصّادق فى جهاده ، وقد نال قسطا من الرّاحة ، بعد أن قام بالمهمة التى كلف بها خير قيام . وإليك هذا النصّ الآخر الّذى يدل على حِرْص المصطفى ﷺ أن تكون علاقة جنده المؤمنين قوية ببارئهم جلّ وعلا : « عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قلنا يوم الخندق يا رسول الله : هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا . وآمن روعاتنا »[4] إنّ المصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة فى كلّ الظروف والمواقف ، وإنّه فى ذلك الظرف العصيب ، إمام

---

(١) السيرة النبوية ٢٧٤/٣ (محمّد محى الدّين عبد الحميد) .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٢/٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٧١/٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٧٢/٣ وتفسير الطبرى ٨٠/٢١ .

المجاهدين ، وسيّد الصابرين ، ومثال الصّادقين . وقد نصّت هذه السورة الكريمة على كونه ﷺ هو الأسوة الحسنة الكاملة للمؤمنين . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾.

وإنّ المؤمنين المتقين المجاهدين ، لهم وراء ذلك حظوظهم من الإيمان التى انعكست كمياتها على ظنونهم فى تلك الأيام الحرجة . وفى الإمكان أن نتخذ من آيات الذّكر الحكيم النبراس الّذى ينير لنا السبيل فى هذا الشأن .

إنّ هذه الآية الكريمة من سورة يوسف[2] : ﴿ **حتى إذا استيأس الرّسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسُنا عن القوم المجرمين** ﴾ تبين أنّ رسل الله تعالى ، مظهرا من مظاهر ابتلاء الله تعالى لهم وتمحيصه إيّاهم ، يصحّ أن يدب إلى نفوسهم شيء من اليأس من قبول أقوامهم لدعوة التوحيد والاستبطاء الشديد لنصر الله تعالى لهم على خصومهم الكافرين ، بسبب ما استقرّ فى نفوسهم من تكذيب هؤلاء الخصوم الكافرين لهم ، وإصرارهم على التكذيب . ويلاحظ أنّ هذه الصيغة « استيأس» وليس « يئس » لها قدرة أكبر على الإيحاء بتمكن اليأس من رسل الله تعالى ، وليس من أتباعهم . كما يلاحظ أن الإشارة إلى اليأس مطلقة وليست مقيدة بأمر من الأمور . وهنا فقط ، وقد بلغت المسألة ذروتها ، يجيء بالفعل نصر الله تعالى لهؤلاء الرّسل وأتباعهم على الكافرين المكذبين المنكرين . إنّ رسل الله تعالى ، وكل واحد منهم هو الأسوة الحسنة لأتباعه المؤمنين ، إذا كان من الطّبيعى لحظة من اللحظات أن يدب إليهم اليأس من قبول أقوامهم الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد ، فمن الجائز كذلك فى مثل تلك اللحظة ، أن يظهر على ألسنتهم نوعٌ من التساؤل استبطاءً للنصر ، وفى طريقة قريبة من حال اليائس : متى نصر الله ؟ وإنّ رحمة الله تعالى قريبٌ من المحسنين . وإلى مثل هذه الحال أشار قوله تعالى من سورة البقرة[3] : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضّراء وزلزلوا حتّى يقول الرسول**

---

(١) الآية ٢١ .
(٢) الآية ١١٠ .
(٣) الآية ٢١٤ .

والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب إنّ الملابسات التى أشارت إليها الآية الكريمة ، بين يدى السّؤال على لسان الرّسول الكريم والّذين معه : متى نصر الله ، من الجائز أن يفهم منها أنّ شيئاً من اليأس الّذى أشارت إليه آية سورة يوسف عليه السّلام قد دبّ إلى النفوس . ولعل مثل هذا اليأس قد دبّ إلى المؤمنين فى غزوة الخندق . ونود أن نشير بهذه المناسبة إلى أمرين مهمين بشأن هذه الآيات الكريمات :

الأمر الأوّل هو أن الخطاب فى هذا القسم من السّورة يوجه إلى المؤمنين . وقد لاحظنا أنّ صدر السّورة الكريمة ، يوجه فيه الخطاب إلى المصطفى ﷺ . وهذا معناه أنّ الظنون المختلفة الّتى ظنها المؤمنون بالله تعالى مقصورة عليهم ، دون أن تتجاوزهم إليه ﷺ . ولا تثريب على هؤلاء المؤمنين بشأن الظنون التى يمكن أن تصدر فى مثل تلك اللحظة الرّهيبة من بعض رسل الله تعالى ، باستبطاء النصر مثلاً ، إنّما التثريب لاحق بأصحاب الظنون غير اللائقة ، الدّالّة على انخفاض مستوى الإيمان إلى الدّرجة التى ينعدم فيها الإيمان ويبدو معها عوار النفاق . والمعروف أنّ السّورة الكريمة قد عنيت بهؤلاء المنافقين ، بما فى ذلك الآيات الكريمات التى تتحدث عن غزوة الخندق .

والأمر الثّانى هو أنّ المصطفى ﷺ أحد أولى العزم من الرّسل بل زعيمهم . وإنّ هذه السّورة الكريمة فى ذكرها لهؤلاء الرّسل الخمسة . وفى ابتدائها بالمصطفى ﷺ بالذّات ، لتدلّ على كل ذلك . وإنّا لنتساءل : أيصح أن يدب شىء من اليأس ، أو شىء من الظنون إلى زعيم أولى العزم من الرُّسل ؟ الجواب بالنفى . وإنّ السّورة الكريمة لتجيب على ذلك بصريح العبارة ، حينما تنصّ على أن المصطفى ﷺ ، هو الأسوة الحسنة فى كلّ مجال من مجالات الحياة التى تخطر ببال عبد من عباد الله تعالى . وفى مقدّمة ذلك الجهادُ فى سبيل الله تعالى الّذى يعتبر ذروة سنام الإيمان . وقد لاحظنا أن جيش المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ فى غزوة الأحزاب ، قد أخذ حذره امتثالا لأوامر الله تعالى ، بحيث إنّ المشركين ، حينما عبر بعضهم الخندق ، من أضيق جوانبه ، كان المسلمون لهم بالمرصاد ، حتى أرغموا من لم يقتل من العابرين على أن يعود أدراجه . ولم يخطر ببال الآخرين أن يحتذوا بهم فى فعلهم ، ولم يفكر من

ذاقوا وبال أمرهم فى إعادة المحاولة ، لأنّ المؤمنين ، قد ثبت أنّهم أكثر خلق الله تعالى يقظة وحذراً واستبسالا وتضحية ، ليلاً ونهارا . وبهذا يتبين أنّ قوله تعالى : ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ يعنى المؤمنين فى المقام الأوّل . وإذا كان إعداد المصطفى ﷺ القوّة المادّيّة لخصومه كبيرا . فقد بذل جيش الإيمان فى هذا الجانب منتهى طاقته ، فإنّ إعداد المصطفى ﷺ القوّة الرّوحية كبير حقا .

لقد كان ﷺ الأسوة الحسنة للمؤمنين فى مجال الإقبال على الله تعالى ، والتوكل عليه ، وعدم الاتكال على النفس طرفة عين . وقد اغترف المؤمنون من معين هذه القوّة الرّوحية ، فى حدود طاقتهم . وكانت ظنون هؤلاء المؤمنين تبعا لقوّتهم الإيمانية ، وطاقة نفوسهم لاستيعاب الكمية من الإيمان التى يتلقون . « قال الحسن : ظنوا ظنونا مختلفة . ظنّ المنافقون أن المسلمين يُسْتأصلون . وظنّ المؤمنون أنّهُمْ يُبْتَلون . وقال ابن عطية : أى يكادون يضطربون ويقولون : ما هذا الخلف للوعد . وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين ، لا يمكن البشر دفعها . وأمّا المنافقون فعجلوا ونطقوا »[1] وقال أبو حيّان[2] : « فظنّ المؤمنون الخلص أنّ ما وعدهم الله من النصر حقّ . وأنّهم يستظهرون . وظنّ الضعيف الإيمان مضطربه والمنافقون ، أنّ الرّسول والمؤمنين سيغلبون . وكلّ هؤلاء يشملهم الضمير فى وتظنون » ويقول الزّمخشرى[3] : « وتظنون بالله الظنونا ، خطاب للذين آمنوا ، ومنهم الثبت القلوب والأقدام . والضعاف القلوب الذين هم على حرف . والمنافقون الذين لم يوجد منهم الإيمان إلاّ بألسنتهم . فظنّ الأوّلون بالله أنّه يبتليهم ويفتنهم . فخافوا الزّلل وضعف الاحتمال . وأمّا الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم » ويقول ابن جرير[4] « وتظنون بالله الظّنون الكاذبة . وذلك كظن من ظنّ منهم أن رسول الله ﷺ يغلب ، وأنّ ما وعده الله من النّصر أن لا يكون ، ونحو ذلك من ظنونهم الكاذبة ، التى ظنها من ظنّ ، ممن كان مع رسول الله ﷺ فى عسكره » .

« وقرىء الظنون بغير ألف فى الوصل والوقف وهو القياس وبزيادة ألف فى الوقف .

---

(١) البحر المحيط ٢١٧/٧ .
(٢) البحر المحيط ٢١٧/٧ .
(٣) الكشّاف ٥٣٢/٢ .
(٤) تفسير الطّبرى ٨٣/٢١ .

زادوها فى الفاصلة ، كما زادها فى القافية من قال :

أقلّى اللوم عاذل والعتابا .

وكذلك الرّسولا والسّبيلا . وقرىء بزيادتها فى الوصل أيضاً ، إجراءً له مجرى الوقف . قال أبو عبيد : وهنّ كلّهن فى الإمام بألف[1] » وقد فصل القرطبى فى تفسيره ما أجمل الزّمخشرى . يقول[2] واختلف القرّاء فى قوله تعالى : الظّنونا والرّسولا والسّبيلا . آخر السّورة . فأثبت ألفاتها فى الوقف والوصل نافع وابن عامر . وروى عن أبى عمرو والكسائى تمسكاً بخط المصحف مصحف عثمان ، وجميع المصاحف فى جميع البلدان . واختاره أبو عبيد إلاّ أنّه قال : لا ينبغى للقارىء أن يدرج القراءة بعدهن لكن يقف عليهن . قالوا ولأنّ العرب تفعل ذلك فى قوافى أشعارهم ومصاريعها وقال :

نحن جلبنا القرّح[3] القوافلا تستنفر الأواخر الأوائلا

وقرأ أبو عمرو ، والجحدرى ، ويعقوب ، وحمزة ، بحذفها فى الوصل والوقف معاً .. وأمّا الشّعر فموضع ضرورة بخلاف القرآن فإنّه أفصح اللغات ولا ضرورة فيه . قال ابن الأنبارى : ولم يخالف المصحف من قرأ الظنون ، والسبيل ، والرّسول . بغير ألف فى الحروف الثّلاثة . وخطّهن فى المصحف بألف .. وقرأ ابن كثير وابن محيصن والكسائى بإثباتها فى الوقف ، وحذفها فى الوصل . قال ابن الأنبارى : ومن وصل بغير ألف ، ووقف بألف فجائز أن يحتج بأنّ الألف احتاج إليها عند السّكت ، حرصاً على بقاء الفتحة ، وأنّ الألف تدعمها وتقوّيها» قال عزّ من قائل : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة الأخيرة فى القسم ، قال تعالى : ﴿ **هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ استطعنا أن نفهم التجربة الصّعبة التى مرّ بها المسلمون ، بعلمه جلّ وعلا وإرادته . ولحكمة اقتضاها جلّت قدرته . ونحن من

---

(١) الكشّاف ٢/٥٣٢ .

(٢) تفسير القرطبى ٥٢٢٧ .

(٣) القرح جمع القارح ، وهى النّاقة أوّل ما تحمل .

ناحيتنا نودّ أن نتدبّر الآية الكريمة ، كى نتبين أبعاد ذلك الابتلاء والزّلزال الذى هزّ المؤمنين هزّا عنيفا . كما نود أن نتبين بعض الفوائد التى اكتسبها المؤمنون من ذلك الامتحان القاسى .

وأوّل ما يلاحظ ، أن الآية الكريمة يتمّ فيها التحوّل من استعمال ضمير المخاطب الّذى تجلّى فى الآيتين الكريمتين السّابقتين إلى ضمير الغائب ، ممّا يصحّ معه أن تنزل الآية الكريمة منزلة الدّرس أو العظة ، أو حتى المثل ، الملائم لكل مناسبة مماثلة . بحيث إنّا يصحّ أن نطلق الآية الكريمة فى كلّ مناسبة مماثلة . وبذلك تخرج الآية الكريمة من حدود المكان والزّمان ، اللّذين ارتبطت بهما أساساً . وهذا التحوّل مفيد بشأن الدّرس الّذى ينبغى أن يؤخذ فى هذه المناسبة ، والذى سنقف عنده إن شاء الله تعالى مستقبلا . وربما كان لطيفا أن نشير فى هذا الصّدد إلى أنّ القول الّذى صدّرت به الآية الكريمة : « **هنالك** » تعبير يشمل كلاًّ من المكان والزّمان معاً وحينما تُستعمل الآية الكريمة فى كلّ مناسبة ، فمعنى هذا أنّها يصحّ أن تشمل كلّ مكان وزمان مماثلين . جاء بشأن « هنالك » فى البحر المحيط[1] : « هنالك ظرف مكان للبعيد . هذا أصله . فحمل عليه ، أى فى ذلك المكان الذى وقع فيه الحصار والقتال ابتلى المؤمنون . والعامل فيه ابتلى . وقال ابن عطية : هنالك ظرف زمان » ويقول القرطبى[2] : « هنا للقريب من المكان وهنالك للبعيد . وهناك للوسط . ويشار به إلى الوقت . أى عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق » . والابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان بالشدائد والمحن .

والزلزال يرتبط أساساً باضطراب الأرض بسبب اضطرارها ، بإرادة الله تعالى ، فى بعض الأوقات ، لأن تتنفس على غرار اضطرارنا لزحزحة غطاء القدر قليلا كى تتنفس ، وإلاّ ألقت القدر دفعة واحدة بكلّ ما بداخلها ، أو بجله وربما انفجرت . وكذلك الأرض . إنّها بسبب حرارتها الداخلية الخيالية الارتفاع ، والصراع العنيف النامى داخليا بين عناصرها السّائلة بفعل تلك الحرارة ، تتنفس هى الأخرى فى هيئة الزّلازل وفى هيئة البراكين ، فى بعض الجوانب الضّعيفة للقشرة الأرضية .

وهذه الزّلازل تتفاوت قوّة وضعا شدة ولينا . إنّ الزلزال يكون أحياناً عنيفا عنف

---

(١) البحر المحيط ٢١٧/٧ .

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٢٨ .

زلزال أغادير بالمغرب العربى الّذى دمّر المدينة عن بكرة أبيها ، وقد يكون خفيفاً كالّذى حدث فى مدينة الرّباط فى شهر رجب من عام ١٣٩٩ هـ حينما خيل لى وأنا مستلق بغرفة الفندق فى الظّهيرة أنّ الفندق متجاوب تماماً مع الأرض فى صوتها وفى حركتها الزّلزالية التى تشبة الموجة العنيفة الهائجة بل الموجات المتلاحقة المزمجرة المتدفقة ، ومعها جذورها العميقة تحتها المرتبطة بها المشدودة إليها . لقد كان كلّ ذلك نوعا من الزّلزال الخفيف والعياذ بالله .

فأى أنواع الزلازل ضربت المؤمنين فى المقابل نفسيا وعقديّا ؟ إنّه أشدُّ أنواع الزّلازل ، القادر بإرادة الله تعالى فى حقّ الأرض أن يحدث الأخاديد الهائلة كالبحر الأحمر ، ويبرز من الأعماق أمثال جبال الهملايا ، ويوجد القارات الضخام . ومِثْل هذا النوع من الزّلازل معنويا ، هو الّذى يفهم من مجىء المصدر « زلزالا » الّذى يفيد التوكيد بطبعه ، ومِنْ وصف هذا المصدر المؤكد بالقول « شديدا » قال عزّ من قائل ﴿ **هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾.

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تتضمن لفظة « المؤمنون » بصريح العبارة وليس اسم الضمير فقط العائد إلى المؤمنين . ولذلك مغزاه بشأن الدّرس الذى لقنه المؤمنون : « قال الزّجّاج : كلّ مصدر من المضاعف على فعلال يجوز فيه الكسر والفتح ، نحو قلقلته قلقالا وقلقالا . وزلزلوا زلزالا وزلزالا . والكسر أجود[1] لأنّ غير المضاعف على الكسر ، نحو دحرجته دحراجا . وقراءة العامّة بكسر الزاى . وقرأ عاصم والجحدرى : زلزالا بفتح الزّاى . قال ابن سلام : أى حركوا بالخوف تحريكا شديدا .. وقيل : إنّه اضطرابهم عمّا كانوا عليه . فمنهم من اضطرب فى نفسه . ومنهم من اضطرب فى دينه »[2] .

ونحن إذا نظرنا إلى الآية الكريمة من زاوية المقارنة بينها وبين الآيتين الكريمتين

---

(١) انظر مثلاً فى هذا الشأن ما قال ابن القيم بشأن تثليث عين الفعل المضارع عزّ يعزّ وكيف أنّ أقوى الحركات وهى الضمّة أعطيت لأقوى المعانى وهو الغلبة والقهر للغير وأنّ أضعفها وهى الفتحة لأضعف هذه المعانى وهو كون الشىء فى نفسه صلبا ، ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه والكسرة وهى متوسطة القوّة للمعنى المتوسّط وهو القوى الممتنع عن غيره ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه ص ١٣٦ من طريق الهجرتين .

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٢٩ .

السّابقتين استطعنا أن نتبين عدّة أمور . أوّلا الآية الكريمة تستعمل لفظة « المؤمنون » بينما تستعمل الآية الكريمة الأولى فى القسم فى حقهم « الذين آمنوا » وبتأمل الظّرفين المحيطين اللذين استعمل فيهما التعبير ، من الجائز أن يفهم أنّ هذا التعبير : « الذين آمنوا » يشمل كلّ المؤمنين ، بمختلف درجات إيمانهم ، ومنهم الّذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه . ومنهم الّذين تذبذبوا بين الإيمان وحافّة النفاق . وهؤلاء الأخيرون هم الّذين يشملهم فى المقام الأوّل القول : « **وتظنون بالله الظنونا** » ومن الجائز أن يفهم أنّ هذا القول : « المؤمنون » يخص المؤمنين حقّا ، لأنّهم هم الذين ثبتوا فى مواقعهم . وحينما رأوا الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلاّ إيماناً وتسليما . وربمّا كان لطيفا أن نشير إلى أنّ الآيتين الكريمتين فى السّورة ، الثانية والعشرين والثّالثة والعشرين ، فى معرض الثناء على هؤلاء المؤمنين ، تستعمل لفظة المؤمنين . قال تعالى : ﴿ **ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليما . من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا** ﴾ وإنّ كون المؤمنين قد ثبتوا بعون الله تعالى أثناء الابتلاء فى أماكنهم بحاجة منا إلى أن نقف عند الأمر الثّانى المتعلق بالزّلزال .

ثانيا : هذا الأمر يتعلق بالزّلزال الّذى حلّ بالمؤمنين والّذى وصف بالشدّة. لقد عرفنا أن المؤمنين قد ثبتوا بعون الله تعالى فى ميدان المعركة . وقد كان الزّلزال من نصيب هؤلاء الثّابتين ، وليس من نصيب المنافقين الّذى يتسللون لواذا والذين يزعمون أن بيوتهم عورة . ونحن نتبين عميق علاقة وشبه بين ثبات المؤمنين الّذين اقتصر عليهم الزّلزال معنويا وبين اقتصار الزّلزال حسيا على أماكن بعينها . وفرق بين النوعين من الزّلازل أن من يمسهم الزّلزال حسيا ، يفاجأون به فى أماكنهم ويرجمون عليه . بينما الّذين مسهم الزّلزال المعنوى فى غزوة الأحزاب هم المؤمنون الصّادقون الّذين رضوا به ، لأنّه قدر الله تعالى عليهم ، فصبروا واحتسبوا . وقد كانت النّهاية بسبب صبرهم واحتسابهم وثقتهم فى بارئهم غاية فى الحسن والطيب ، للدرجة التى استحقت أن ينوّه بها وأن ينبه المؤمنون على كونها نعمة عظمى خصهم الله تعالى بها .

ثالثاً : المؤمنون المتقون قد نصروا الله تعالى ، رغم الابتلاء الّذى لحق بهم والزّلزال الّذى حلّ بهم ، فاستحقوا النعمة الكبرى من الله تعالى بنصرهم على عدوّ الله تعالى وعدوّهم ، ويفهم من كل ذلك ما بينته هذه الآية الكريمة من سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام[1] قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ وإن آية سورة الأحزاب هذه : ﴿ **هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ التى فهمنا أنّها تعنى المؤمنين حقّا ، وأنّها تكاد تكون مقصورة عليهم ، يصحّ أن تنزل منزلة المثل الذى يُستَعْمل فى كلّ مناسبة مماثلة ، يُبْتلى فيها المؤمنون حقا ، ويزلزلون معها زلزالا شديدا . وإن على المؤمنين وراء ذلك ، فى كلّ زمان ومكان ، أن تكون هذه الآية الكريمة نبراساً ينير لهم السّبيل ، وطاقة تهيّئهم وتدفعهم إلى جليل الأعمال وخطيرها . فبدون أن يروّضوا أنفسهم على أمثال ذلك الابتلاء وتلك الزّلازل . مستعينين بالله تعالى ، لن تقوم لهم قائمة . إنّه بدون التصدى للصعاب ، والثبات أمامها ، وتحمل المشاق ، وبذل الغالى والرّخيص فى سبيل رفع راية لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ، سيظل المسلمون فى ذيل قائمة الأمم ، على نحو ما هم عليهم الآن . إنّ واجب كلّ مسلم غيور على هذا الدّين ، أن يكون مهيئاً نفسه لأن يُرَدِّد هو أو أن يردد المؤمنون المتقون أمثاله فى حقه قوله تعالى : ﴿ **هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ نسأل الله تعالى أن يهيىء لنا جميعاً من أمرنا رشدا . إنّه سميعٌ مجيب . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظّنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ .

---

(١) الآية ٧ .

(٥)

المنافقون الآيات : ١٢ – ٢٠

الآيات الكريمات التّسع التّاليات تتحدّث عن المنافقين ، ابتداء من الآية الكريمة الثّانية عشرة ، وإنتهاء بالآية الكريمة العشرين . قال تعالى : **وإذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض مّا وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامُقام لكم فارجعوا.ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلاّ فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلاّ يسيرا.ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت.فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكا ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم.ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ .**

نستطيع أن نذهب بشأن المنافقين الّذين تتحدّث عنهم الآيات الكريمات إلى أنهم أنواع ، أو أنهم على درجات . وهذه هى فئاتهم .

المنافقون

الذين فى قلوبهم مرض

القائلون يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا

الّذين استأذنوا النبى ﷺ فى الانسحاب الزّاعمون بأن بيوتهم عورة

المعوقون القائلون لإخوانهم هلم إلينا ، الأشحة على المؤمنين بكلّ خير مادّى أو معنوى ، فهم لا يأتون البأس إلاّ قليلا ، ولو كانوا فى المؤمنين ما قاتلوا إلاّ قليلا .

وعلى الرغم من أنّ صفة النفاق تشمل كل هؤلاء ، فإنّه يلوح والله تعالى أعلم ، أنّ الحديث عنهم ابتداء بأشدهم نفاقا . فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا** ﴾ .

وإذا كنا بشأن الآية الكريمة السّابقة فى القسم السّابق المتعلق بالمؤمنين ذهبنا إلى أنّ إطلاق لفظة « المؤمنون » فى الآية الكريمة يعنى صفوة هؤلاء المؤمنين المتقين ، قال تعالى : ﴿ **هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ فإنّا بشأن هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن نوعين من المنافقين ، فى إطلاقها لفظة « المنافقون » تعْنى أشد المنافقين نفاقا . وكأنهم يسفلون فى هذه الصفة السيئة عن الّذين فى قلوبهم مرض ، الّذين جمعت الآية الكريمة بينهم وبين المنافقين فى قَرَن ، مِمّا هو دليلٌ على تقارب الفريقين فى مستوى النفاق مع اشتمال « المنافقون » على صفات سيئة أخرى ، لم ينزل إليها بعد الّذين فى قلوبهم مرض .

ونحن لا نذهب إلى كون المنافقين يسفلون عن الّذين فى قلوبهم مرض لمجرد التشابه فى طريقة التعبير عن هذين الفريقين فى آيتين متجاورتين ، بل لأنّ سياق الآية الكريمة ذاته يقول بذلك ، ولأنّ سياق الآيات الكريمات يقول بذلك أيضاً . ونرجىء الحديث عن سياق الآيات ، ونبادر إلى الحديث عن السياق فى الآية الكريمة ذاته . إنّا بتدبرنا للآية الكريمة نتبين أنّ الآية الكريمة ، إذا كانت قد قدّمت فى الذّكر المنافقين على الّذين فى قلوبهم مرض ، فإنّها تبعا لذلك قدمت أشدّ الجريمتين نكرا بشأن تكذيب الفريقين لوعد الله تعالى ، ووعد رسوله الصّادق الوعد الأمين ﷺ . حقاً إن الفريقين يشتركان فى القول : ﴿ **ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا** ﴾ ومع ذلك فنحن نتبين من تقديم لفظ الجلالة « الله » أنّ وقاحة المنافقين انحطت بهم حالا إلى أسفل سافلين ، حينما جرءوا على إيذاء الله تعالى . ومن باب أولى سواه . كما نتبين أنّ وقاحة الّذين فى قلوبهم مرض انحطّت إلى أسفل سافلين ، حينما جرءوا على إيذاء الله

تعالى ، وكأنهم اتخذوا إيذاء الرّسول الكريم مطية لهم إلى ذلك . وقد بيّنت السّورة الكريمة حكم الله تعالى فى هؤلاء المنافقين والّذين فى قلوبهم مرض ، الذين يؤذون الله ورسوله . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **إنّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدّنيا والآخرة وأعدّلهم عذاباً مهينا** ﴾.

ومِنْ أهمّ الأدلّة على كون هاتين الفئتين من المنافقين ، تمثّل أسوأ فئاتهم ، إضافة إلى ما جرى على ألسنتهم ممّا يُعْتَبرُ أسْوأ ما يجرى على لسان إنسان ، أنّ الآية الكريمة تستعمل صيغة الزّمن المضارع يقول ﴿ **وإذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض** ﴾ وما قيل عن العامل فى « إذ » فى الآيتين الكريمتين الأولى والثّانية فى القسم السّابق التّاسعة والعاشرة من السّورة الكريمة ، يقال هنا . فإذا كان قد صرح بجملة اذكروا فى أولى المناسبات ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود** ﴾ وأضمر العامل بعد ذلك ، فإنّ الشّىء نفسه يقال هنا . والتقدير يصحّ أن يكون : واذكروا إذ يقول المنافقون ..

وإنّ وصف المنافقين بالصّفة التى ليس دونها ما هو أسوأ منها ، ووصف الفئة الثّانية بكونهم الّذين فى قلوبهم مرض ، يصحّ أن يفهم منه ، فى ضوء كون المريض القلب يمكن أن يعالج ، أنّ هؤلاء المرضى القلوب بالنّفاق ، يصحّ أن يعالجوا وقتا من الأوقات . وهم يحتاجون إلى العودة الصّادقة إلى الله تعالى كى يعينهم جلّ وعلا على الخلاص من هذه الورطة ، وإلاّ ازدادوا-والعياذ بالله تعالى – رجْسا إلى رجسهم ، وانحطّوا إلى أحطّ درجات النّفاق ، وماتوا وهم كافرون . وقد ألمحت سورة براءة[2] إلى هذا الفهم . قال تعالى : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا . فأما الّذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأمّا الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجْسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرّة أو مرّتين ثمّ لا يتوبون ولاهم يذكرون . وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثمّ انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ .

---

(١) الآية ٥٧ .

(٢) الآيات ١٢٤ – ١٢٧

لقد بلغت وقاحة هاتين الفئتين من المنافقين وجراءتهما على الله ورسوله أبعد الدّرجات . والغرور الباطل من القول[1] جاء فى القاموس[2] : « غرّه غرًا وغرورا وغرّة بالكسر فهو مغرور وغرير كأمير ، خدعه وأطمعه بالباطل فاغتر هو». جاء فى لباب النقول[3] : أخرج ابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو والمزنى عن أبيه عن جدّه قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب[4] فأخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدوّرة . فأخذ رسول الله ﷺ المعول فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتى المدينة . فكبر وكبر المسلمون . ثمّ ضرب الثانية فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها . فكبر وكبر المسلمون . ثمّ ضربها الثالثة فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابيتها . فكبر وكبر المسلمون . فسئل عن ذلك فقال : ضربت الأولى فأضاءت لى قصور الحيرة ومدائن كسرى . وأخبرنى جبريل أنّ أمتى ظاهرة عليها . ثمّ ضربت الثانية فأضاءت لى قصور الحمر من أرض الرّوم ، وأخبرنى جبريل أنّ أمتى ظاهرة عليها . ثمّ ضربت الثالثة فأضاءت لى قصور صنعاء ، وأخبرنى جبريل أنّ أمتى ظاهرة عليها . فقال المنافقون : ألا تعجبون . يحدّثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، وأنّها تفتح لكم وأنتم إنّما تحفرون الخندق من الفَرَق ، لا تستطيعون أن تبرزوا . فنزل القرآن : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا** ﴾[5] .

والّذين تزعموا هذا القول طُعمة بن أُبَيرق ومعتب بن قشير وجماعة ، نحو من سبعين رجلا[6] وممّا قالوا[7] « يعدنا محمّد أن نفتح كنوز كسرى وقيصر ومكّة ، ونحن لا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط . ما يعدنا إلاّ غرورا». أى أمرا يغرنا ويوقعنا

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٢٩ .

(٢) « غرر » .

(٣) ص ١٧٢

(٤) جاء فى تفسير الطّبرى ٨٥/٢١ أنّ النبى ﷺ جعل أربعين ذراعا بين كلّ عشرة من الصّحابة .

(٥) انظر تفسير الطبرى ٨٥/٢١ ، ٨٦ فثمة إضافات مهمة وتفسير القرطبى ٥٢١٢ .

(٦) تفسير القرطبى ص ٥٢٢٩ .

(٧) البحر المحيط ٢١٧/٧ .

فيما لا طاقة لنا به » عن مجاهد : قوله : وإذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض . قال : تكلّمهم بالنفاق يومئذ . وتكلم المؤمنون بالحق والإيمان . قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله »[1] وقد صرح ابن كثير بتفاوت مستويات النّفاق ، يقول :[2] أما المنافق فنجم نفاقة . والذى فى قلبه شبهة أو حسكة[3] لضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس فى نفسه ، لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب** ﴾ قال تعالى : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا** ﴾.

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية ، قال تعالى : ﴿ **وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلاّ فرارا** ﴾. استطعنا ابتداءً أن نقول عن الآية الكريمة عدّة أمور :

أوّلا : الآية الكريمة تشير إلى المصطفى ﷺ بلفظ النبى وليس باسم الضمير المتصل أو المنفصل .وذلك لاحق بخطابه ﷺ فى عدّة مواضع فى السّورة الكريمة ، والإشارة إليه بهذه النعمة الجليلة . ممّا هو دليلٌ أكيد على منزلته الرّفيعة ﷺ عند بارئه ، جلّ وعلا .

ثانياً : تتحدّث الآية الكريمة على غرار الآية الكريمة السّابقة عن فريقين من المنافقين ، الفريق الذى قال لأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا . والفريق الذى يستأذن النبى ﷺ فرارا من القتال ، زاعما أن بيوته عورة .

ثالثاً : إذا كانت الآية الكريمة السّابقة قدّمت الحديث عن أرسخ الفريقين قدما فى النّفاق ، على نحو ما مرّ بنا ، فإنّ هذه الآية الكريمة تسير على غرارها ، حيث إنّ الآية الكريمة تقدّم الحديث عن أسوأ الفريقين عملا . فالفريق الأوّل تبلغ به الوقاحة للدّرجة التى يأمر أهل يثرب ، بأن يرجعوا عن ميدان المعركة ويتركوا الرّسول ﷺ مع

---

(١) تفسير الطّبرى ٨٥/٢١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٣/٣ .

(٣) الحسكة واحدة الحسك وهو النبات الشائك والعظم الدّقيق .

المؤمنين وحدهم فى الميدان . ويُفْهم من هذا أنّ هذا الفريق المنافق قد انسحب فعلا من ميدان المعركة من ذى قبل . وها هو ذا يُغْرى الآخرين بأن يحذوا حذوه . أمّا الفريق الثّانى فإنّه يرتفع عن ذلك المستوى قليلا . لذا هو يستأذن النبى ﷺ متعللا بأكذب الأعذار من أجل الوصول إلى ذات النتيجة الّتى انتهى إليها الفريق الأوّل . الفرار من ميدان المعركة .

رابعاً : حينما تقدّم الآية الكريمة وفق سابقتها أعتى الفريقين نفاقا ، فكأن هذا الفريق الأوّل فى الآية الكريمة الثّانية ، من جنس الفريق الأوّل فى الآية الكريمة الأولى . وإنّ الشىء ذاته يقال عن ثانى الفريقين فى الآيتين الكريمتين .

فلنتأمل كلاً من جزئيتى الآية الكريمة على حدة . فمع الجزئية الكريمة الأولى قال تعالى : ﴿ **وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا** ﴾ إنّ الجار والمجرور « منهم » يفيد أنّ هذه الطّائفة تلحق بأرسخ الفئات قدما فى النفاق . فما الذى قالت هذه الطّائفة ؟ إنّ أوّل ما يلاحظ هو أنّ هؤلاء السّيئى الطوية ، يرغبون عن الاسم الحبيب إلى المصطفى ﷺ ، والّذى أطلقه عليه الصلاة والسّلام على المدينة المنورة ، طيبة وطابة[1] إلى الاسم الّذى رغب عنه المصطفى ﷺ « يثرب » لعلاقة هذا الاسم باللوم والتعيير بالذنب والتثريب « وروى ابن زُبالة وابن شبة نهيه ﷺ عن تسمية المدينة يثرب . وفى تاريخ البخارى حديث : من قال يثرب مرّة فليقل المدينة عشر مرّات . وروى أحمد وأبو يعْلى حديثا : من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله . وهى طابة ورجاله ثقات . وفى رواية فليستغفر الله ثلاثا »[2] .

والمعروف أنّ هذه هى المرّة الوحيدة فى القرآن الكريم التى تستعمل فيها لفظة يثرب . علما بأن لفظة تثريب ، جاءت هى الأخرى فى القرآن الكريم مرّة واحدة فى سورة يوسف عليه السّلام فى معرض نفى يوسف عليه السّلام التثريب عن إخوته الّذين أساءوا إليه من قبل . قال تعالى[3] : ﴿ **قال لاتثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم وهو أرحم الرّاحمين** ﴾ . وليس لهذين اللفظين من الأصل الواحد ثرب ثالث فى

---

(١) انظر هنا تفسير القرطبى ص ٥٢٣٠ .

(٢) وفاء الوفا ١٠/١ .

(٣) سورة يوسف ٩٢ وانظر دراستنا لهذه اللفظة فى كتابنا : الوحدة الموضوعية فى سورة يوسف عليه السلام .

القرآن الكريم. جاء فى القاموس[1] : وثربه يثربه وثرّبه وعليه وأثربه لامه وعيره بذنبه[2] وقد علل السمهودى[3] كراهته ﷺ التسمية بالقول : ووجه كراهة ذلك إمّا لأنه مأخوذ من الثرب بالتحريك وهو الفساد . أو لكراهة التثريب ، وهو المؤاخذة بالذنب . أو لتسميتها باسم كافر»وقد علّل السمهودى السَّبب فى تسميته ﷺ يثرب طيبة وطابة إضافة إلى طيِّبة وطائب ككاتب ، والمطيبة بضمّ أوّله وفتح ثانيه[4] يقول[5] : الثانى والأربعون : طابة بتخفيف الموحّدة . الثالث والأربعون : طيبة ، بسكون المثناة التحتية . الرّابع والأربعون طيبة بتشديدها . الخامس والأربعون طائب ككاتب ، وهذه الأربعة مع اسمها المطيِّبة أخوات ، لفظا ومعنى ، مختلفات صيغة ومبنى . وقد صحّ حديث : إنّ الله سمّى المدينة طابة . وفى رواية : إنّ الله أمرنى أن أسمّى المدينة طابة . وروى ابن شبّة وغيره ، كانوا يسمون يثرب ، فسمّاها رسول الله ﷺ طيبة . وفى حديث : للمدينة عشرة أسماء هى المدينة وطيبة وطابة .. وتسميتها بهذه الأسماء إمّا من الطِّيب ، بتشديد المثناة ، وهو الطاهر لطهارتها من أدناس الشرك . أو لموافقتها من قوله تعالى : بريح طيبة[6] أو لحلول الطّيب بها ﷺ ، أو لكونها كالكير تنفى خبثها وينصع طيبها . وإمّا من الطيب – بسكون المثنّاة – لطيب أمورها كلّها ، وطيب رائحتها ، ووجود ريح الطّيب بها . قال ابن بطّال : من سكنها يجد من تربتها وحيطانها رائحة حسنة . وقال الإشيلى : لتربة المدينة نفحة ليس طيبها كما عهد من الطّيب ، بل هو عجب من الأعاجيب . وقال ياقوت : من خصائصها طيب ريحها . وللمطر فيها رائحة لا توجد فى غيرها . وما أحسن قول أبى عبد الله العطّار :

بطيب رسول الله طـاب نسميها فما المسك ما الكـافور ما المندل الرّطب

---

(١) « ثرب » .

(٢) انظر فى أسماء هذه البلدة الشّريفة وفاء الوفا للسمهودى ١/٨ – ٢٧ فقد ذكر لها أربعة وتسعين اسما . وقال ص ٨ : اعلم أنّ كثرة الأسماء تدلّ على شرف المسمى . ولم أجد أكثر من أسماء هذه البلدة الشّريفة .

(٣) وفاء الوفا ١/١٠ .

(٤) وفاء الوفا ١/٢٤ وهو الاسم الحادى والثمانون من أسمائها الأربعة والتسعين .

(٥) وفاء الوفا ١/١٦ .

(٦) سورة يونس ٢٢ .

والملاحظ أنّ القرآن الكريم ، فى هذه السورة الكريمة وفى غيرها من السّور ، يستعمل أشهر الأسماء وأحبها لإضافتها أساساً إلى المصطفى ﷺ ، وهذا الاسم هو المدينة ، اختصاراً لمدينة رسول الله ﷺ قال تعالى[1] : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثمّ لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا** ﴾ وجاء فى سورة التّوبة ، فى مقام الحثّ على الجهاد قوله تعالى[2] : ﴿ **ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه . ذلك بأنّهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوّ نيلاً إلاّ كتب لهم به عملٌ صالح . إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ وجاء فى سورة التّوبة كذلك فى مقام التحذير من النفاق قوله تعالى[3] : ﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون . ومِنْ أهل المدينة مردوا على النّفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرّتين ثمّ يردون إلى عذاب عظيم** ﴾ وجاء فى سورة "المنافقون" قوله تعالى[4] : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ . ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون** ﴾[5] ويلاحظ أنّ المنافقين يجيء على لسانهم لفظ المدينة وليس يثرب ، لأنّ المناسبة التى نزلت فيها الآية الكريمة من سورة المنافقون متعلقة بغزوة بنى المصطلق فى شعبان من سنة ستّ من الهجرة.والمعروف أنّه بنصر الله تعالى المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ على الأحزاب وعلى يهود بنى قريظة خفت صوت النفاق ، وانكسرت شوكته . والمعروف أنّ الغزوتين فى السّنة الخامسة بل إنّ من العلماء من ذهب إلى كون غزوة الأحزاب وبنى قريظة فى ذى القعدة وصدر ذى الحجة من سنة أربع لا خمس من الهجرة[6] فالمنافقون ليس لديهم

---

(١) سورة الأحزاب ٦٠ .

(٢) سورة التوبة ١٢٠ .

(٣) سورة التوبة ١٠١ .

(٤) سورة المنافقون ٨

(٥) انظر ابن كثير ٣٦٩/٤ - ٣٧١ فى غزوة المريسيع وهى غزوة بنى المصطلق من خزاعة فى شعبان سنة ستّ من الهجرة انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣٣٣/٣ - ٣٣٧ (محمد محى الدّين عبد الحميد) .

(٦) انظر مثلاً تفسير القرطبى ٥٢٢٤ .

الشجاعة الآن كى يستعملوا لفظ يثرب بدلا من المدينة ، هذا إلى كون القول على لسانهم ليخرجن الأعز منها الأذل يمكن أن يفهم منه أنّ الأعزّ هم المؤمنون ، بل إنّ ذلك هو الّذى تعمد المؤمنون أن يفهموه ومن ثمّ ترجموه إلى عمل[1] .

وإنّ هذه الطّائفة من المنافقين التى تطلب من أهل يثرب أن يرجعوا من جبهة القتال إلى داخل المدينة ، حيث يقبع المنافقون والعجزة والشيوخ والصبيان والنّساء . يريدون من الّذين يخاطبونهم أن يقوموا بذات العمل المشين الّذى قاموا به . وتلك طبيعة كلّ المنحرفين عن سواء الصّراط ، فإنّ إحساسهم بمركب النقص ، لأنّهم يأتون أمرا غير طبيعى ، وإحساسهم بالحسد تجاه الآخرين الّذين يأتون الصحيح من الأعمال والأقوال ، يدفعهم كلّ ذلك، وهم أصحاب النّفوس الشّريرة ، والقلوب المريضة ، والصّدور الحاقدة ، لأن يعملوا بأقذر الوسائل ، كى يعززوا جانبهم ، ويوسعوا دائرتهم . وكلّ ذلك معناه أنّ عمل هؤلاء المنافقين أن يثروا على حساب فقر المؤمنين . وأن تتسع دائرة نفوذهم فى مقابل تقلص نفوذ المؤمنين ، وأن يقوى عود النفاق ويشتد ، وأن يذبل فى المقابل عود الإيمان ويذوى .

وإنّ هذه الطّائفة من المنافقين ليوحى إليها شيطانها ونفسها الأمّارة بالسوء فيجرى على لسانها المبرر الّذى من الجائز أن تنطلى بسببه حيلة المنافقين وسوء طويتهم . إنهم ليوطّئون لأمر أهل يثرب أن يحذوا حذوهم ، فى الانسحاب من جبهة القتال . بمس الزّناد ، الكفيل بتفجير المشاعر والأحاسيس والانفعالات والتصورات « لا مقام لكم » إنّ مكان المرابطة ، على جبهة القتال ، مع المصطفى ﷺ ، ليس هو مكان الإقامة أو مكان القيام اللائق بهؤلاء المرابطين ، وهم قليلو العدد والعدة . خاصة وقد انسحبت هذه الطّائفة بالفعل من ميدان القتال ، دون إذن ، فظهرت قلة عدد المؤمنين أشدّ وضوحا ، وليس بينهم وبين عدوّهم الّذى يفوقهم عدداً وعدة ، سوى الخندق . يقول القرطبى بشأن القول « لا مقام لكم »[2] بفتح الميم ، قراءة العامة . وقرأ حفص ، والسلمى ، والجحدرى ، وأبو حيوة بضمّ الميم . يكون مصدرا من أقام يقيم . أى لا إقامة ، أو موضعا يقيمون فيه . ومن فتح فهو اسم مكان ، أى

---

(١) انظر مثلاً السيرة النبوية ٣/١٣٣٥ (محمد محى الدّين عبد الحميد) وما قال أسيد بن حضير له ﷺ .

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٣٠ .

لا موضع لكم تقيمون فيه» وقد فصّل أبو حيّان ذلك بعض الشى فقال[1] : « قرأ السُّلمى ، والأعرج ، واليمانى ، وحفص بضمّ الميم . فاحتمل أن يكون مكانا ، أى لا مكان إقامة . واحتمل أن يكون مصدرا أى لا إقامة . وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو رجاء والحسن وقتادة والنخعى وعبد الله مسلم وطلحة وباقى السّبعة بفتحها . واحتمل أيضاً المكان ، أى لا مكان قيام . واحتمل المصدر أى لا قيام لكم » .

إنّ هذه الطّائفة من المنافقين الّذين أعمى الله تعالى بصائرهم ، وزادهم رجسا إلى رجسهم ، بعد أن خالفوا صراحة أمر الله تعالى للمؤمنين فى سورة آل عمران ، التى نزلت بعد موقعة أحد ، أى قبل غزوة الأحزاب ، بأن يصبروا ويصابروا ويرابطوا . قال تعالى[2] : ﴿ **يا أيها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ وبعد أن انسحبوا دونما خوف من الله تعالى وحياء منه جلّ وعلا ومن المصطفى ﷺ ومن المؤمنين . هم يطلبون بوقاحة من الأنصار على جهة الخصوص ، المرابطين مع المصطفى ﷺ ، فى معركة من أصعب المعارك التى خاضها الإسلام فى فجره وأخطرها ، أن يرجعوا . لننظر إلى الجملة الّتى تستعملها طائفة المنافقين : « ارجعوا » بما أنّ المكان الّذى يرابط فيه المصطفى ﷺ والمؤمنون . ليس مكان إقامة وهذا شىء معروف ، فالإقامة فى عرف المنافقين الجبناء ، فى حدائق المدينة المنوّرة الغناء والتنعم بالظّلال الوارفة ، والثمار الشّهية ، والطعام اللذيذ ، وليس مكان القيام، لأنه لافائدة من القيام فى ذلك المكان الّذى يرجح فيه لدى المنافقين الّذين انقطعت صلتهم بالله تعالى أنّ الدّائرة فى تلك الغزوة ستدور على المؤمنين ، على نحو قوله تعالى عن هؤلاء المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض فى سورة الأنفال[3] : ﴿ **إذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم . ومن يتوكل على الله فإنّ الله عزيز حكيم** ﴾ فمن الطبيعى أن يطلبوا ممّن يظنون أنّهم سيوافقونهم ، وخصوصا سكان المدينة الأصليين من الأوس والخزرج أن يرجعوا . هكذا ببساطة . وكأنّهم كانوا فى نزهة برية أشرفوا خلالها على وادى العقيق ووادى قناة ومجتمع الأسيال برومة التى تسيل بمياهها المتدفقة فى مواسم الأمطار . ولم

(١) البحر المحيط ٢١٨/٧ .
(٢) سورة آل عمران ٢٠٠ .
(٣) الآية ٤٩ .

لا يركز هؤلاء المنافقون على هذا النوع من المؤمنين ، وهم يعلمون أن سبب ما فيه المؤمنون من البلاء ، المهاجرون والأنصار معا ، اعتناقهم لهذا الدّين الذى رضيه الله تعالى لعباده ، ودفاعهم المستميت عنه . وحينما يتملص المنافقون من هذه الربقة ، هم ومن يرغبون منهم أن يلحقوا بهم فى ذلك التملص والتخلص ، سيتحولون بطريقة آلية إلى أصحاب للأحزاب وأحباب . وبما أنّ هؤلاء الأحزاب بعد أن ينتصروا حتما فى يقين أولئك المنافقين مرضى النفوس والقلوب ، ربّما عطفت رحمهم على أبناء جلدتهم من المهاجرين . فما الذى سيشفع لابنى قيلة لدى القوم ؟ أن يتركوا المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ فى أحرج اللحظات ، لمصيرهم المتوقع ، بأن يبيدوا عن بكرة أبيهم ، ويقتلع الإسلام من جذوره . وبهذا يكون المنافقون وفق خيالاتهم السقيمة ، الموافقة لنفوسهم المريضة ، قد أمنوا الأحزاب المنتصرين . وأمنوا المؤمنين الذين استئصلت شأفتهم . ولو فرض أنهم بقيت منهم بقية ، فإنّها أعجز من أن ترفع عينها لذل الانكسار والهزيمة والسّوء الذى خيم على أوجههم ، فضلاً عن أن ترفع بأناملها سوطا أو عصا . ويدها سيفا أو رمحا أو سهما . وتشاء العناية الإلهية أن تتقلب تلك الأوهام رأساً على عقب ، وتشاء العناية الإلهية أن يتحوّل ذلّ المؤمنين عزا﴿ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾[1] قال تعالى : ﴿ **وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا** ﴾ .

والطائفة تقع على الواحد فما فوقه . وعنى به هنا أوس بن قيظى والدعرابة بن أوس الّذى يقول فيه الشماخ :

إذا ما راية رفعتْ لمجد تلقّاهـا عرابـة باليمين[2]

ويقول الطبرى[3] : « وقيل إنّ ذلك من قيل أوس بن قيظى ومن وافقه على رأيه ويقول أبو حيّان[4] : « وفى معتّب ونظرائه نزلت هذه الآية .. قال السُّدى : والقائل لذلك عبد الله بن أبىّ ابن سلول وأصحابه . وقال مقاتل : بنو سلمة »إلى

---

(١) سورة المنافقون ٨ .

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٢٩ .

(٣) تفسير الطبرى ٨٦/٢١ وانظر الكشاف ٥٣٣/٢ .

(٤) البحر المحيط ٢١٧/٧ .

غير ذلك من أقوال[1] وعلق أبو حيّان قائلا[2] : ويمكن صحة هذه الأقوال ، فإنّ فيهم من كان منافقا » .

فإذا تحوّلنا إلى القسم الثانى فى الآية الكريمة الّذى يتحدث عن الطائفة الثّانية أو الفريق الثانى من المنافقين ، قال تعالى : ﴿ **ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلاّ فراراً** ﴾ تبين أنّ هذا الفريق يختلف فى بعض الجوانب عن الطائفة السّابقة رغم اشتراكهما فى صفة النفاق أساساً . ومن هذه الفروق :

أوّلا : إذا كانت الطّائفة السّابقة التى تنصح أهل يثرب بالفرار من ميدان المعركة ، وقد فهم ضمنا أنّ هؤلاء القائلين قد رجعواهم أنفسهم إلى يثرب بالفعل ، فإنّ الفريق الثّانى من أجل الوصول إلى الغاية ذاتها ، الفرار من ميدان القتال ، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم ، لديه مُسْكة من عقل وقليل من الإحساس بمسئوليته أدبيا ، تجاه الفريق الّذى هو معه ، والّذى يحارب عدوّا شرساً ، فلا يليق به ، من جهة الشهامة العربية ، إن لم يكن من جهة النزر اليسير من الإيمان ، الّذى من الجائز أن يكون موجودا ، أن يرجع من ميدان المعركة دون استئذان متعلّلا بعذر صورى .

ثانياً : إذا كانت الطائفة الأولى لم تقنع بالرّجوع من ميدان المعركة ولم تكتف به ، إنّما أغرت أهل يثرب بالرّجوع لذلك ، فإنّ هذا الفريق الآخر ، الذى استأذن بالانصراف من ميدان المعركة ، كى يحصن بيوته غير الحصينة ، واعدا بالرّجوع إلى ميدان المعركة بعد التحصين[3] وبما أنّ القوم كاذبون فى اعتذراهم لأنّ بيوتهم ليست بعورة . وقد تمكنوا من الفرار من ميدان المعركة ، بطريقة ذكية فى اعتقادهم ، فمعنى هذا أنّهم لن يرجعوا إلى ميدان المعركة بحال من الأحوال . لأن مصدر العورة الّتى حلّت ببيوتهم ، لن يزول حتى يعود الأحزاب أدراجهم . فإذا رجع الأحزاب من حيث أتوا ، سقط السّبب أساساً الذى يحمل القوم على أن يرجعوا إلى ميدان

---

(١) انظر مثلا تفسير القرطبى ٥٢٣١ .

(٢) البحر المحيط ٢١٧/٧ .

(٣) انظر هنا البحر المحيط ٢١٨/٧ والكشاف ٥٣٣/٢ .

المعركة ، لعدم وجود جيش الأحزاب أساساً . وكلّ ذلك معناه أنّ القوم قد حققوا بفرارهم ذات الهدف الّذى حققه الفريق الأوّل ، رغم اختلاف الوسيلتين . وإذا كانت الطّائفة الأولى بلغت بها الجراءة للدّرجة الّتى تأمر بصريح اللفظ أن يرجعوا من جبهة القتال ، فإنّ هذا الفريق قد صرح بذلك ولكن بلسان الحال ، لا بلسان المقال . وبهذا يضرب هذا الفريق المثل السيء بعمله ، بينما يجمع الفريق الأوّل بين القول والعمل . قال تعالى : ﴿ **ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إنّ بيوتنا عورة ، وما هى بعورة إن يريدون إلاّ فراراً** ﴾ .

ثالثاً : إذا كان هذا الفريق الثّانى يرتفع عن الطّائفة السّابقة فى مستوى النّفاق شيئاً قليلا ، لأنّ المفهوم أنّ الفرق بين الجماعتين طفيف حقّاً ، فإنّ هذا الترتيب المعين للفريقين يسير وفق التّرتيب للفريقين السّابقين فى الآية الكريمة السّابقة .

رابعاً : تبين الآية الكريمة أنّ الاستئذان من هذا الفريق هو ذاته العذر الكاذب ﴿ ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إنّ بيوتنا عورة ﴾ إنّ هذا العذر الكاذب ، هو الّذى جعل منه هذا الفريق مطيته ، مِنْ أجل الوصول إلى ذلك الهدف الرّخيص . وانظر إلى الطّريقة المؤكدة لصياغة العذر ، الّتى توحى بما بيت القوم من خيانة وغدر . لقد فضح الله تعالى هؤلاء الكذبة ، وأخزى هؤلاء الخونة يقول عز وجلّ : « **وما هى بعورة . إن يريدون إلاّ فرارا** » .

ومن هم هؤلاء الّذين يستأذنون النبى ﷺ ويكذبون فى عذرهم ؟ يقول الطبرى[1] : « عن ابن عباس .. هم بنو حارثة . قالوا : بيوتنا مُخْلية[2] يخشى عليها السَّرق » وهو رأى مجاهد وقتادة[3] ويقول ابن كثير[4] : ويستأذن فريق منهم النبى ، قال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ هم بنو حارثة ، قالوا : بيوتنا نخاف عليها السّرّاق . وكذا قال غير واحد . وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قيظى ، ويقول أبو حيّان[5] : « وهم كانوا عاهدوا الله لايولون الأدبار » ويقول

---

(١) تفسير الطبرى ٨٦/٢١ وانظر البحر المحيط ٢١٨/٧ .

(٢) جاء فى لسان العرب « خلا » ووجدت الدار مخلية أى خالية ويقال : سرق منه الشيء سَرَقاً محرّكة ، بمعنى جاء مستتراً إلى حرز فأخذ مالاً لغيره . انظر القاموس .

(٣) تفسير الطبرى ٨٧/٢١

(٤) تفسير ابن كثير ٤٧٣/٣ .

(٥) البحر المحيط ٢١٨/٧ وانظر تفسير القرطبى ص ٥٢٣١ فيما حكى النقاش فى سبب نزول الآية الكريمة .

القرطبى[1] : قوله تعالى : « ويستأذن فريق منهم النبى ، فى الرّجوع إلى منازلهم بالمدينة . وهم بنو حارثة بن الحارث ، فى قول ابن عباس . وقال يزيد بن رومان : قال ذلك أوس بن قيظى عن ملأ من قومه » .

وما معنى اللفظ عورة من القول : « يقولون إن بيوتنا عورة » ؟ يقول الزّمخشرى[2] : قرىء عورة بسكون الواو وكسرها ، فالعورة الخلل . والعورة ذات العورة . يقال : عور المكان عورا إذا بدأ فيه خلل يخاف منه العدوّ والسّارق . ويجوز أن تكون عورة تخفيف عورة ، ويقول القرطبى[3] : أى سائبة ضائعة ليست بحصينة . وهى ممّا يلى العدوّ . وقيل : ممكنة للسراق لخلوّها من الرّجال . يقال دار مُعورة وذات عورة ، إذا كان يسهل دخولها . يقال : عور المكان عورا فهو عور . وبيوت عورة . وأعور فهو مُعْوِر . وقيل : عورة ذات عورة . وكلّ مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة . قاله الهروى . وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو رجاء العطاردى : عورة بكسر الواو ، يعنى قصيرة الجدران فيها خلل . تقول العرب : دار فلان عورة إذا لم تكن حصينة . »

خامساً : انظر إلى تكذيب الله تعالى لهؤلاء المنافقين فى القول : وما هى بعورة وإلى فضحه جلّ وعلا نواياهم ، بتبيين السّبب الحقيقى من الاستئذان ﴿ **إن يريدون إلاّ فرارا** ﴾ وإنّ أسلوب القصر الّذى جاء فيه السّبب الحقيقى ، يعتبر أكبر فضيحة يمنى بها هؤلاء المنافقون الكاذبون ، الّذين ظنوا أنهم بمأمن أن يعلم أحد بما أكنته أنفسهم ، وأجنته ضمائرهم ، وأخفته قلوبهم . إنهم بانهما كهم فى عذرهم الكاذب واستئذانهم غفلوا عنه جلّ وعلا الّذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء : ﴿ **ألم يعلموا أنّ الله يعلم سرهم ونجواهم وأنّ الله علام الغيوب** ﴾[4] .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية ، قال تعالى : ﴿ **ولو دخلت عليهم مِنْ أقطارها ثم سئلوا الفتة لآتوها وما تلبثوا بها إلاّ يسيرا** ﴾ تبيّنّا أنّ للعلماء ، بشأن

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٣٠ .
(٢) الكشّاف ٥٣٣/٢ .
(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٣٠ .
(٤) سورة التوبة ٧٨ .

عودة الضمائر أكثر من رأى . إنّ الضمير من القول : ولو دخلت عليهم من أقطارها يعود فى رأى بعض العلماء إلى المدينة المنوّرة الّتى جاءت الإشارة إليها فى صدر الآية الكريمة السّابقة ، أى أقطار المدينة . ومن هؤلاء الطبرى[١] وابن كثير[٢] وابن عطية[٣] بينما يعود فى رأى البعض الآخر إلى البيوت الّتى جاءت الإشارة إليها فى عجز الآية الكريمة السّابقة . ومن الجائز أن تعود إلى المدينة ، ومن هؤلاء أبو حيّان[٤] ويقول الزّمخشرى[٥] : « لو دخلت عليهم المدينة وقيل بيوتهم » ويقول القرطبى[٦] : « وهى البيوت أو المدينة » .

وإنّ الخلاف ذاته موجود بين العلماء بشأن عودة الضمير فى القول : « وما تلبثوا بها » فمنهم من ذهب إلى كون الضمير عائدا إلى الإجابة السريعة . يقول الطبرى[٧] : وقوله : وما تلبثوا بها إلا يسيرا ، يقول : وما احتبسوا عن إجابتهم إلى الشرك إلاّ يسيرا قليلا ولأسرعوا إلى ذلك . وقد عبر عن رأى هذا الفريق القرطبى بالقول[٨] : وقال أكثر المفسرين : أى وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلاّ قليلا ، ولأجابوا بالشرك مسرعين . وذلك لضعف نياتهم . ولفرط نفاقهم . فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر ويقول الزّمخشرى[٩] : وما تلبثوا بها ، وما ألبثوا إعطاءها ، إلا يسيرا ، ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف . أو وما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلاّ يسيرا فإنّ الله يهلكهم وهذا الرّأى الّذى يذهب إلى عودة الضّمير إلى المدينة قال به القرطبى ذاته[١٠] : وما تلبثوا بها أى بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلاّ قليلا حتى يهلكوا . قاله السّدى ، والقتيبى ، والحسن ، والفرّاء وقال أبو حيان[١١]

---

(١) تفسير الطّبرى ٨٧/٢١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٣/٣ .
(٣) البحر المحيط ٢١٨/٧ .
(٤) البحر المحيط ٢١٨/٧ .
(٥) الكشّاف ٥٣٣/٢ .
(٦) تفسير القرطبى ٥٢٣١ .
(٧) تفسير الطبري ٨٧/٢١ .
(٨) تفسير القرطبى ٥٢٣٢ .
(٩) الكشّاف ٥٣٣/٢ .
(١٠) تفسير القرطبى ٥٢٣٢ .
(١١) البحر المحيط ٢١٨/٧ .

وما تلبثوا بها ، وما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلاّ يسيرا فإنّ الله مهلكهم ، ويخرجهم بالمؤمنين»أمّا ابن عطية فإنّه يرى عودة الضمير إلى البيوت يقول[1] : « ولم يتلبثوا فى بيوتهم لحفظها إلاّ يسيرا . قيل : قدر ما يأخذون سلاحهم » .

والمتدبر لهذه الآراء يرى أنّها جميعا آراء وجيهة ، إذا لا يستطيع شخص واحد أن يدعى أنّ هذا الرّأى فقط هو الّذى ينبغى قبوله . ووراء ذلك ، ليس ثمة مانع يمنعنا من أن ندلى فى الموضوع بدلولنا . وستكون بإذن الله تعالى نظرتنا معتمدة على سياق الآيات الكريمات . وها هى ذى نظرتنا فى هيئة نقاط :

أوّلا : لقد لاحظنا النسق اللطيف الّذى سارت وفقه الآيتان الكريمتان الأوليان ، حينما تحدثت كل من الآيتين عن فئتين منافقتين ، وقدّمت الحديث كلّ مرة عن أعرق الفئتين نفاقا.ففى الآية الكريمة الأولى تقدّم الحديث عن المنافقين أوّلا ، تلا ذلك الحديث عن الّذين فى قلوبهم مرض . وفى الآية الكريمة الثانية تقدّم الحديث عن الطّائفة التى فرت من ميدان المعركة ، وأمرت أهل يثرب بأن يرجعوا من الميدان كذلك . تلا ذلك الحديث عن الفريق الّذى يستأذن بالانسحاب من الميدان . ويلاحظ أن صيغة الزّمن المضارع يستأذن هى التى تستعمل هنا ، دليلا على استمراء أفراد هذا الفريق الكاذب العذر الذى يبدونه هو ذاته كلّ مرّة ينسحبون ويتسللون لواذا ، زرافات ووحدانا . بينما جاءت صيغة الزّمن الماضى « وإذ قالت » بشأن الطّائفة الأولى . دليلا على أنّها أردفت القول بالعمل الّذى تمّ فعلا . فى ضوء هذا النسق اللطيف الدّقيق ، هل فى الإمكان أن ننظر إلى الآية الكريمة الثّالثة ، وكذلك الرّابعة ، من هذه الزّاوية ذاتها ؟ كأن نذهب إلى كون الآية الكريمة الثّالثة تتعلق بالطائفة الأولى فى الآية الكريمة الثانية وإلى كون الآية الكريمة الرّابعة تتعلق بالفريق الثانى فى الآية الكريمة الثانية ذاتها ؟ وهذه هي الآيات الأربع معاً، كى تكون أبعاد الحديث ماثلة أمامنا . قال تعالى : **﴿ وإذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلاّ فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثمّ سئلوا الفتنة لآتوها**

---

(١) البحر المحيط ٢١٨/٧ .

وما تلبثوا بها إلاّ يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار . وكان عهد الله مسئولا ﴾ ويلاحظ أن الآيتين الكريمتين التّاليتين على جهة الخصوص ، مرتبطتان تماماً بالآية الكريمة الأخيرة الرّابعة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الآية الكريمة الخامسة على جهة الخصوص ، قد جاءت فيها لفظة الفرار ، التى جاءت فاصلة بحق الفريق الثانى المستأذن الكاذب فى عذره ، أمكن القول إنّ هذه الحقيقة يصحّ أن تكون قوّة معززة للرّأى الّذى نذهب إليه ، من كون كلّ من الآيتين الكريمتين ، الثّالثة والرّابعة ، تتعلّق بالطائفة ، وبالفريق على التوالى . وهاتان هما الآيتان الكريمتان اللتان جاءت لفظة الفرار فى أولاهما . قال تعالى : « **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتّعون إلاّ قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة . ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾** .

ثانياً : حينما نذهب إلى كون الضمير فى القول : « من أقطارها » عائدا إلى مدينة يثرب ، وهو الرّأى الّذى نعتقد ، فى ضوء الاعتقاد بكون الآية الكريمة الثالثة هذه كلّها متعلقة بالطائفة التى أمرت أهل يثرب بالرّجوع ، يكون المعنى : ولو دخل الأحزاب على هذه الطائفة مدينة يثرب من أقطارها المختلفة ، ونواحيها المتعددة ، فإنّهم وهم المنهزمون نفسيا ، منذ أن يدخل عليهم الأحزاب المدينة ، لو سئلوا الدّخول فى الكفر ، لما احتبسوا عن إجابتهم إلى الشرك إلا يسيراً قليلا ، ولأسرعوا إلى ذلك[1] إنّ هؤلاء الجبناء ، بمجرد أن يدخل الأحزاب عليهم الباب ، يعلنون انهزامهم واستسلامهم ، واستعدادهم للانسلاخ من الإسلام . فليس ثمّة شيء من إيمان ومقاومة ، تحمل هؤلاء المنافقين على أن ينتظروا حتى يدخل عليهم الأحزاب بيوتهم ، بعد أن يكونوا قد دخلوا عليهم مدينة يثرب ذاتها . ومعروف أنّ بيوت هذه الطّائفة ليست بعورة ، وبالتالى فلو دخل الأحزاب المدينة ، وكان فى البيوت مقاومة ، لكان من القوم تلبث غير يسير . وهذه الملابسات تبين أنّ عودة الضمير من القول أقطارها إلى المدينة أولى من عودته إلى البيوت ، والله تعالى أعلم . والأقطار جمع القطر بالضم : الناحية والجانب . وقومك أقطار البلاد على الظّرف ، وهى من الحروف

---

(١) تفسير الطّبرى ٨٧/٢١ .

الّتى عزلها سيبويه ليفسر معانيها ولأنّها غرائب . وفى التنزيل العزيز : مِنْ أقطار السّماوات والأرض . أقطارها نواحيها واحدها قُطر .. قال ابن مسعود : لا يعجبنك ما ترى من المرء حتّى تنظر على أى قطريه يقع أى على أى شقية يقع فى خاتمة عمله . أعلى شق الإسلام أو غيره . وأقطار الفرس ما أشرف منه ، وهو كاثبته وعجزه . وكذلك أقطار الخيل والجمل ، ما أشرف من أعاليه . وأقطار الفرس والبعير نواحيه .. وطعنه فقطره أى ألقاه على قطره أى جانبه فتقطر أى سقط .. وأنشد :

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطّر الفارس إلاّ أنا[1]

من هذه النّصوص يتبين أنّ لفظ القطر يطلق على جانب الشيء الكبير كالمدينة ، والصغير كالبيت . وقد رجح فى نظرنا أنّ المراد بالأقطار فى الآية الكريمة أقطار مدينة يثرب كما أوضحنا . والله تعالى أعلم .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التالية ، قال تعالى : ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا** ﴾ تبينا أنّنا الآن نتعامل مع أخف الطّوائف الأربع نفاقا ، إنهم يعرفون معنى عهد الله تعالى الّذى قطعوه على أنفسهم بألاّ يولّوا مرّة أخرى ، إذْ هَمّتْ هذا الفريق فى أحد ، وهم بنو حارثة ، مع الفريق الآخر ، بنى سلمة أن يفشلوا . على نحو ما صرحت بذلك آية سورة آل عمران[2] قال تعالى : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليُّهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ ورغم إعطاء بنى حارثة العهد من الله تعالى على أنفسهم بألاّ يولّوا الأدبار هم يولّون فى غزوة الخندق الأدبار ، حينما يستأذنون النبى ﷺ ويقولون : إن بيوتنا عورة . وإنّ القرآن الكريم ليؤاخذ هؤلاء الّذين ولوا الأدبار كلّ المؤاخذة . لأنهم بهذا العمل قد باءوا بغضب من الله تعالى ، ومأواهم جهنم وبئس المصير ، وقد قال عزّ من قائل فى سورة الأنفال[3] : ﴿ **يا أيها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولّهم يومئذ دبره إلاّ متحرّفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ وها هى ذى سورة

---

(١) لسان العرب « قطر » .

(٢) الآية ١٢٢ .

(٣) الآية ١٥ ، ١٦ .

الأحزاب ، تبين أنّ هؤلاء القوم سيسألون يوم القيامة ، عن عهد الله تعالى الّذى آتوه ، والذى نكثوه ، بتوليهم الأدبار ، أى بفرارهم من ميدان المعركة « وكان عهد الله مسئولا » ويلاحظ أنّ التعبير عن الفرار الّذى جاءت الإشارة إليه من قبل صراحة ، أثناء الحديث عن هذا الفريق المستأذن ، يعبر عنه هنا بتولية الدبر ، بينما يعبر عنه فى الآية الكريمة التالية فى القسم بصريح الفرار . قال تعالى : ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلاّ قليلا** ﴾ .

ونحن حينما نستشير الآراء التى تحدّثت عن الآية الكريمة ، نتبين أنّ فى الإمكان أن نجد الدّليل على كون هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها ، مرتبطة بالفريق المتسأذن فى الانسحاب من جبهة القتال أو فى الفرار من الميدان . وبهذا يتبين أنّ الآية الكريمة الثانية فى القسم إذا كانت قد تحدّثت عن الطائفة التى قالت : يا أهل يثرب لامقام لكم وعن الفريق المستأذن ، فإن الآيتين الكريمتين التاليتين ، تتحدث كلّ واحدة منهما على التوالى ، عن إحدى الطّائفتين أو أحد الفريقين على التوالى أيضاً . يقول الطبرى[1] : « وكان عهد الله مسئولا » يقول : فيسأل الله ذلك من أعطاه إياه من نفسه . وذكر أنّ ذلك نزل فى بنى حارثة لما كان من فعلهم فى الخندق ، بعد الّذى كان منهم بأحد .. عن ابن إسحاق قال : ثنى يزيد بن رومان : ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ، وهم بنو حارثة . وهم الّذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بنى سلمة ، حين هما بالفشل يوم أحد ، ثم عاهدوا الله لا يعودون لمثلها . فذكر الله لهم الّذى أعطوه من أنفسهم » ويقول السمهودى فى وفاء الوفا[2] : وذلك أن قريشا ومن معهم نزلوا يوم الأحزاب ويوم أحد أيضاً على ماذكره المطرى برومة وما والاها ، بالقرب من منازل بنى حارثة من الأوس ، ومنازل بنى سلمة من الخزرج . وكان الفريقان مع رسول الله ﷺ فى مركز الحرب . ولذلك خافوا على ذراريهم وديارهم العدوّ يوم أحد ، فنزل فيها : إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما . قال عقلاؤهم : ماكرهنا نزولها لتولى الله إيانا ، ورفع الله عنهم ببركة النبى ﷺ وصدق نياتهم» ومن الواضح أنّ حديث سورة الأحزاب عن القوم ، يختلف عن حديث سورة آل عمران . إنّه هنا حديث الذم

---

(١) تفسير الطّبرى ٨٧/٢١ وانظر البحر المحيط ٢١٩/٧ وتفسير القرطبى ص ٥٢٣٢ .

(٢) ٩/١ .

الشديد والتأنيب الموجع ، بسبب فرارهم من ميدان الشرف والرّجولة ، والتذرع بأكذب الأعذار وأوهى الأسباب ، رغم إيتائهم العهد من الله تعالى على أنفسهم بألاّ يولّوا الأدبار[1] : قال تعالى : ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسئولا** ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية ، قال تعالى : ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلاّ قليلا** ﴾ تبيّنّا أنّها امتداد للآية الكريمة السّابقة ، حيث إن المصطفى ﷺ ، هو الّذى يطلب منه أن يخبر الفارين من ميدان الرّجولة ، بأنّ الفرار من الموت أو القتل لن ينفعهم ، لأن الفرار مهما طال فإلى أجل تنتهى معه حياة كلّ إنسان ،إماّ بالموت وإمّا بالقتل . وكما قال المتنبى[2] .

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

ولكن هؤلاء المنافقين استمرءوا حياة الجبن والذل والخنوع .والآية الكريمة فى حديثها عن الموت والقتل ، تقدم الموت حنف الأنف ، وهو الحال الّذى يموت وفقه غالبا الجبناء الحريصون على الحياة ، أى حياة ، ولو كانت حياة الذّل والهوان والاستكانة ، إلى أن تنتهى أنفاسهم المحدودة العدد ، وضربات قلوبهم التى ليس لها حينما يجىء الأجل مدد . وتؤخّر الآية الكريمة الحال الأخرى الّتى يموت وفقها عادة المجاهدون فى سبيل الله تعالى ، الذين يبذلون أموالهم وأرواحهم رخيصة فى سبيل الله تعالى أمّا المنافقون فإنّهم أبعد خلق الله تعالى من مجرّد التفكير فى هذا النّوع الشريف من الوفاة ، فضلا عن أن يعملوا من أجله . إنّهم يكادون يتوفون لمجرّد ذكر لفظ القتال ، فى إحدى آيات الذّكر الحكيم . وإلى ذلك أشارت الآيتان الكريمتان من سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام . فكيف ينتظر من هؤلاء الجبناء أن يردوا الموارد الّتى يردها من يحبون الله تعالى ورسوله ويحبهم الله تعالى ورسوله . قال عزّ من

---

(١) يفهم ممّا كتبه الأستاذ الدّكتور مصطفى السّباعى فى السّيرة النبوية ، دروس وعبر ص ٩٧ أثناء حديثه عن غزوة بنى قريظة أنّ الحديث فى الآيات الكريمات الأربع (١٣ - ١٦) من السّورة الكريمة يتجه إلى يهود بنى قريظة . ويقول بشأن العهد فى قوله تعالى « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل » إشارة إلى عهد النّبىّ ﷺ معهم يوم استقر بالمدينة ونحن لا نرى هذا الرّأي ونرى أنّ الحديث عن المنافقين والله تعالى أعلم .

(٢) الدّيوان ٤/٢٤١ .

قائل[1] : ﴿ ويقول الّذين آمنوا لولا نزلت سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الّذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم، طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ إن هؤلاء المنافقين لم يصدقوا النية فلم يصدقوا القول والعمل .

وحينما يفرّ هؤلاء المنافقون من ميدان القتال ، وحينما يحرصون على تحاشى أسباب الموت ، هل يظنون أنهم بمأمن من القتل الّذى يفرون منه ، إن كان الله تعالى قدّر عليهم القتل ، ومن الموت وهو آت لا محالة . على هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم أن يتمثلوا جيداً قوله تعالى[2] : ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الّذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » وقوله تعالى[3] : « كل نفس ذائقة الموت ﴾ .

وحينما يفرّ هؤلاء المنافقون من ميدان المعركة حرصاً على الحياة ، كى يأكلوا ويتمتعوا ويلهيهم الأمل ، فإنّ مصيرهم إلى الموت وإلى النّار وبئس القرار . فالنعيم القصير الأجل المحدوده فى هذه الحياة الدّنيا زائل لا محالة ، فهو قليل حقا ، لأنّ له نهاية آتية لا ريب فيها ، وكلّ آت قريب . ولأن ذلك النعيم الزائل كان المقابل الّذى ذهب من أجله النعيم المقيم فى الجنة التى عرضها السماوات والأرض ، والّتى أعدّها الله تعالى للمتقين ، والتى فيها مالا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . يقول ابن كثير[4] : « ثمّ أخبرهم أنّ فرارهم ذلك لا يؤخّر آجالهم ولا يطول أعمارهم ، بل ربّما كان ذلك سببا فى تعجيل أخذهم غرة . ولهذا قال تعالى : « وإذاً لا تمتعون إلاّ قليلا » وقد صرّح الطبرى بأن الآية الكريمة فى أولئك المستأذنين الكاذبين يقول[5] : يقول تعالى ذكره لنبيه محمّد ﷺ: « قل يا محمد لهؤلاء الّذين يستأذنونك فى الانصراف عنك ويقولون إن بيوتنا عورة ، لن ينفعكم الفرار ، إن فررتم من الموت أو القتل » قال الربيع بن خيثم : وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى إن فررتم من الموت أو القتل لا ينفعكم الفرار ، لأن مجيء

(١) سورة محمد ٢٠/٢١ .
(٢) سورة آل عمران ١٥٤ .
(٣) سورة آل عمران ١٨٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣/٤٧٣ .
(٥) تفسير الطبرى ٢١/٨٨ .

الأجل لا بد منه[1] وإذا ملغاة ، ويجوز إعمالها . فهذا حكمها إذا كان قبلها الواو والفاء . فإذا كانت مبتدأة نصبت بها فقلت : إذا أكرمك[2]» وقد ذكر الله تعالى المتاع والتمتع والاستمتاع والتمتيع فى مواضع من كتابه ، ومعانيها وإن ختلفت راجعة إلى أصل واحد.قال الأزهرى فأمّا المتاع فى الأصل فكلّ شىء ينتفع به ، ويتبلغ به ويتزود والفناء يأتى عليه فى الدّنيا[3] قال تعالى :﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلاّ قليلا** ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية ، قال تعالى :﴿ **قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة.ولا يجدون لهم من دون الله ولياًولا نصيرا** ﴾ ، استطعنا أن نتبين ببساطة العلاقة القوية بينها وبين الآية الكريمة السّابقة ، عليها ، بل الآيات الكريمات السّابقات . وأوّل ما يلاحظ من علاقة هو أن الآية الكريمة السّابقة ، تنبه المنافقين الفارين من ميدان المعركة ومن جبهة القتال ، بأن الفرار من الموت أو القتل لن ينفعهم ، لأنّ المتعة التى يحرصون عليها فى الحياة الدّنيا ، تنتهى فى أحسن الأحوال ، برحيلهم من هذه الحياة الدّنيا بالموت ، وبما أنّ أحسن الأحوال الّتى يتمنى المنافقون ، بأن يأكلوا ويتمتعوا ويلهيهم الأمل ، قليلا ماتتحقق ، فما كلّ ما يتمنى المرء وإن كان عين الهلاك ، يدركه ، فمعنى هذا أنّ ما تبقى من عمر هؤلاء المنافقين بعد الفرار يمكن بإرادة الله تعالى ، أن يكون خلافا لما يشتهون ، عذابا وجحيما . وها هى ذى الآية الكريمة التّالية ، تقرر هذه الحقيقة . قال تعالى :﴿ **قل من ذا الّذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة . ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا** ﴾ .

وبما أنّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىء ، قد سبقت غضبه جلّ وعلا ، فإنا نتبين هذه الرّحمة تطل علينا فى ظلمة ذلك الجوّ المكفهر الّذى عمل المنافقون على إيجاده بانصرا فهم عن الله تعالى ، واتباعهم للشيطان الرّجيم وللنفس الأمارة

---

(١) البحر المحيط ٢١٩/٧ .
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٣٣ .
(٣) لسان العرب « متع » .